جامعــة الأزهــر

كليــة الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق

الـمجلة العلميـــة

ضعف الهوية الثقافية وأثرها في الحياة الأدبية والنقدية

إعداد

د/ عبد الرحمن إسماعيل محمود

مدرس الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بالمنصورة جامعة الأزهر

(العدد الثالث عشر)

(الإصدار الثاني١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م)

(الجزء الثاني)

علمية- محكمة- نصف سنوية

ضعف الهوية الثقافية وأثرها في الحياة الأدبية والنقدية

عبد الرحمن إسماعيل محمود
قسم الأدب والنقد، كلية اللغة العربية، المنصورة، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الالكتروني: Abdulrahman.ismail@azhar.edu.eg

الملخص :

قضية الهوية الثقافية لها جذور بعيدة تعود للعديد من القرون، فهي قضية ليست وليدة العصر الحديث نتيجة لتأثر الأدباء أوالنقاد العرب بعملية التأثر والتأثير بين النقد العربي والنقد الغربي، كما أنها ليست بالبساطة التي تدور في نقاشنا حول موقفنا من التفاعل مع الثقافات المغايرة، وحدود هذا التفاعل، فحصر القضية في هذا النطاق الضيق وتبسيطها إلى هذا الحد يضر بها، كما أنه ينم عن عدم وعي وإدراك للجذور البعيدة لهذه القضية، كما أنه يُجَهِّلُ القاريء بها، ويجعله يدور في نفس الدائرة الضيقة التي أُرِيدَ لنا أن ندور فيها، وهذه الدائرة هي دائرة النقاش المحصور في الموقف من التفاعل مع الثقافات المغايرة، وهو نقاش استهلك أدبائنا ونقادنا كثيرا، دون أن يكون له أثر في تطور الحركة الأدبية والنقدية العربية المعاصرة واتخاذ خطوات فعالة تعالج الضعف الذي أصبنا به في هويتنا الثقافية، وحياتنا الأدبية والنقدية.

ومن هذا المنطلق، فقد توقفت في بحثي أمام مراحل الضعف التي مرت بها الهوية الثقافية العربية، وقد تمثلت هذه المراحل في ثلاث مراحل، تحدثت عن كل مرحلة في فصل مستقل، كما بينت المؤثرات التي ساهمت في ضعف الهوية الثقافية في كل مرحلة من هذه المراحل، ثم عرضت بعد ذلك للقضايا الأدبية والنقدية التي تأثرت بضعف الهوية الثقافية في الوطن العربي، فقد كان لكل مرحلة تأثيرها المباشر على واقع الحياة الأدبية والنقدية العربية، وذلك مع تباين في حدة هذا التأثير من مرحلة لأخرى، وفي نهاية البحث جاءت الخاتمة وفيها ملخص لأبرز النتائج والتوصيات التي توصلت إليها في هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: الهوية – الثقافية – الهوية الثقافية – الحياة الأدبية – الحياة النقدية – الأدبية والنقدية – الثقافة.

Weak cultural identity and its impact on literary and critical life

Abdulrahman Ismail Mahmoud Eldakrory
Department of Literature and Criticism, Faculty of Arabic Language, Mansoura, Al-Azhar University, Egypt.
Email: Abdulrahman.ismail@azhar.edu.eg

Abstract:
The issue of cultural identity has distant roots dating back many centuries. It is an issue that is not born of the modern era as a result of the influence of Arab writers or critics by the process of influence and influence between Arab criticism and Western criticism, nor is it as simple as that which takes place in our discussion about our position on interaction with different cultures. And the limits of this interaction. Confining the issue to this narrow scope and simplifying it to this extent is harmful to it. It also indicates a lack of awareness and understanding of the distant roots of this issue. It also makes the reader ignorant of it, and makes him revolve in the same narrow circle in which we were intended to revolve, and this circle It is a circle of discussion limited to the position on interaction with different cultures. It is a discussion that has consumed our writers and critics a lot, without having any impact on the development of the contemporary Arab literary and critical movement and taking effective steps to address the weakness that has afflicted us in our cultural identity and our literary and critical life.

From this standpoint, I stopped in my research at the stages of weakness that Arab cultural identity went through. These stages were represented in three stages. I talked about each stage in a separate chapter, and I also showed the influences that contributed to the weakness of cultural identity in each of these stages. Then I presented the literary and critical issues that were affected by the weakness of cultural identity in the Arab world. Each stage had a direct impact on the reality of Arab literary and critical life, with variation in the intensity of this influence from one stage to another. At the end of the research came the conclusion, which contains a summary of the most prominent results and recommendations. Which I found in this research.

Keywords: Identity - cultural - cultural identity - literary life - critical life - literary and critical - culture.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد ..

فقضية الهوية الثقافية لها جذور بعيدة تعود للعديد من القرون، فهي قضية ليست وليدة العصر الحديث نتيجة لتأثر الأدباء والنقاد العرب بعملية التأثر والتأثير بين النقد العربي والنقد الغربي، كما أنها ليست بالبساطة التي تدور في نقاشنا حول موقفنا من التفاعل مع الثقافات المغايرة وحدود هذا التفاعل، فحصر القضية في هذا النطاق الضيق وتبسيطها إلى هذا الحد يضر بها، كما أنه ينم عن عدم وعي وإدراك للجذور البعيدة لهذه القضية، كما أنه يُجهِّل القاريء بها، ويجعله يدور في نفس الدائرة الضيقة التي أريد لنا أن ندور فيها، وهذه الدائرة هي دائرة النقاش المحصور في الموقف من التفاعل مع الثقافات المغايرة، وهو نقاش استهلك نقادنا كثيرا، دون أن يكون له أثر في تطور الحركة الأدبية والنقدية العربية المعاصرة واتخاذ خطوات فعالة في حسم هذه القضية يمكن أن يعالج قضية الهوية الثقافية التي نمر بها.

تعود جذور القضية إلى عدة قرون، عندما حدث أول صدام بين الثقافة العربية والثقافة الأوربية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، حينما كانت الثقافة العربية لها قدم راسخة في تطور العلوم والمعارف، وكانت لها الغلبة والسيطرة على تطور الحركة الفكرية والمعرفية في شتى العلوم والفنون والمعارف اللغوية والنقدية والطبية والفلكية والفلسفية والاقتصادية، منذ هذه اللحظة بدأ الصدام، وهو صدام قد ينشأ بين الأمم والشعوب والحضارات، فكل أمة أو حضارة تزاحم غيرها وتنازلها في هذا الميدان، وتجتهد في وجود تأثير قوي لها في خريطة الثقافة والحضارة العالمية، حتى لا تكون حضارة مغلوبة وتابعة لغيرها، وبذلك تفقد التحكم في مجريات أمورها؛ وإذا كان هذا التفاعل بين الثقافات قائما وله شرعيته،

فالاختلاف يكمن في طريقته، فقد يأتي بالحوار والتواصل والإيمان بوجود ثقافات مغايرة يجب أن تتعايش وتتلاقح فيما بينها حتى تنمو وتزدهر، وقد يأتي بمحاولة السيطرة والصدام المباشر، أو غير المباشر بهدف إخضاع الثقافات المغايرة للثقافة الغازية، وهو ما حدث بالفعل مع الثقافة العربية.

ومن هذا المنطلق، فقد حاولت في هذا البحث أن أتتبع الجذور البعيدة لحالة الضعف التي مرت بها هويتنا الثقافية حتى أقف على الأسباب الحقيقية للأزمة الثقافية التي نمر بها في العصر الحديث، وقد دفعني لدراسة هذا الموضوع، ما وقفت عليه من ترابط وثيق بين قضية الهوية الثقافية والمشكلات الأدبية والنقدية التي نعاني منها في حياتنا الأدبية والنقدية، فلو نظرنا إلى القضايا الأدبية والنقدية التي برزت في العصر الحديث وكثر حولها النقاش والحوار والاختلاف، لوجدناها تأثرت بأزمة ضعف الهوية الثقافية العربية بصورة مباشرة، ومن هنا جاء العنوان (ضعف الهوية الثقافية وأثرها في الحياة الأدبية والنقدية).

ومن هذا المنطلق، فقد قسمت البحث إلى مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة، وثبت للمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات؛ عرضت في المقدمة نبذة عن الموضوع، وقيمته، ودوافع اختياري له، والموضوعات التي تحويها فصول البحث؛ أما فصول البحث فقد قسمتها إلى ثلاثة فصول تكون كل فصل من مبحثين، عالجت في المبحث الأول من كل فصل مرحلة من مراحل ضعف الهوية الثقافية، وقد رأيت أن الصراع على الهوية الثقافية العربية مر بثلاث مراحل، أفردت لكل مرحلة فصلا مستقلا تحدثت فيه عن الأسباب التي أدت إلى ضعف الهوية الثقافية في كل مرحلة زمنية، أما المبحث الثاني من كل فصل فقد خصصته لأثر ضعف الهوية الثقافية وانعكاسها على الحياة الأدبية والنقدية في كل مرحلة من هذه المراحل الزمنية، وفي نهاية البحث جاءت الخاتمة وفيها ملخص لأبرز النتائج والتوصيات التي توصل إليها البجث.

وأخيرا ... فقد حاولت في هذا البحث أن أكشف عن الأسباب التي قادت

إلى ضعف الهوية الثقافية على مر المراحل الزمنية الممتدة التي بدأت من القرن الحادي عشر حتى العصر الحديث، كما عرضت للقضايا الأدبية والنقدية التي تأثرت بضعف الهوية الثقافية في كل مرحلة زمنية، وقد عرضت الموضوعات الأدبية والنقدية التي تأثرت بقضية الهوية الثقافية وتناولتها بما يتناسب ويتوافق مع حجم البحث وطبيعته التي يجب أن يكون عليها، وأتمنى أن أوفق في هذا العرض، وأن يسهم هذا البحث في حل مشكلة من أكبر المشكلات الأدبية والنقدية التي برزت في العصر الحديث وكان لها تأثير مباشر على حياتنا الأدبية والنقدية.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

الفصل الأول: المرحلة الأولى من مراحل ضعف الهوية الثقافية (١٠٩٦-١٥٠٠م)

المبحث الأول: الأسباب التي أدت إلى ضعف الهوية الثقافية في هذه المرحلة

مرت الهوية الثقافية العربية في رحلة ضعفها بالعديد من المراحل، فلم يأت الضعف المعاصر أو ينشأ مرة واحدة، بل كان هناك العديد من المراحل التي تعاقبت على فترات زمنية طويلة، وكان لكل مرحلة من هذه المراحل ظروفها، وأحداثها، ومؤثراتها، التي اختلفت عن غيرها من المراحل.

وإذا أردنا أن نقف على خطورة القضية وقيمتها، وإذا أردنا أن نعالج الخلل الذي نعاني منه في واقعنا المعاصر، فيجب علينا أن نتتبع أصل القضية في جذورها البعيدة، منذ نشأتها وولادتها، فإذا وقفنا على موطن الصراع وأصل القضية، سهل علينا معالجة واقعنا الراهن، ومن هنا تأتي قيمة هذه المرحلة وأهميتها، فهذه المرحلة وإن لم يكن لها تأثير كبير في ضعف الهوية الثقافية العربية كما حدث في المراحل التالية، إلا أنها مهدت لما بعدها من مراحل، ومن هنا تكمن قيمة هذه المرحلة وأهميتها.

تبدأ هذه المرحلة الزمنية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي على وجه التحديد، وكان من أوائل من تنبه لهذه المرحلة وحددها بدقة، الشيخ محمود شاكر حينما تنبه لأولية الصراع الثقافي الذي حدث بين المسلمين والأوربيين، وبين أن اضطراب الهوية الثقافية العربية بدأ في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي "بعد التصادم المخيف الذي حدث بيننا وبين الثقافة الأوربية الحاضرة، وإذا نحن أغفلنا هذا التاريخ، ولم نتبينه تبينا واضحا، فكأننا أغفلنا القضية كلها، وأسقطناها من عقولنا، وخالفنا سنة العقلاء المميزين في التبصر والتبين، وترك التساهل عند مواطن الخطر، وصار كلامنا في (الثقافة) سدى كله وهدرا، ثم عبثا وثرثرة وتغريرا، كما هو حادث الآن في حياتنا الأدبية هذه الفاسدة، وصار الأمر كله جبنا عن طلب الحق، واستنامة لخداع الباطل وتسويله الخفي، واستدراجه إيانا إلى

سراب مهلك"[١]، وقد بين الشيخ محمود شاكر أن الصدام الثقافي بيننا وبين الأوربيين في هذه المرحلة نشأ بسبب حدثين لهما بالغ الأثر، أما الحدث الأول فقد تمثل في الحروب الصليبية، والثاني ما حدث من نتائج ترتبت على فتح القسطنطينية عاصمة الحضارة البيزنطية على يد القائد العثماني محمد الفاتح.

أ – الحروب الصليبية.

مثلت الحروب الصليبية نقطة الصراع الأولى مع الثقافة الأوربية، وإذا كانت الحروب الصليبية حروبا عسكرية في المقام الأول، إلا أن الجانب الثقافي فيها لم يكن غائبا، فقد كانت الأمة العربية وقتها تملك زمام التقدم والمعرفة في شتى العلوم والمعارف، كما كانت لها الغلبة العسكرية وتوسعت فتوحاتها وبسطت سلطانها على مساحات شاسعة من العالم، وقد أدرك الأوربيون هذا الخطر فحاولوا مجابهته والتصدي له من خلال هذه الحروب الدموية التي بدأت في عام ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م، "أي بعد ستة قرون من سقوط الإمبراطورية الرومانية، في خلالها كان الإسلام قد ظهر بدينه وثقافته وغلب على رقعة ممتدة من حدود الصين إلى الهند، إلى أقصى الأندلس، إلى قلب أفريقية، وأنشأ حضارة نبيلة متماسكة كاملة، بعد أن رد النصرانية وأخرجها من الأرض، وحصرها في الرقعة الشمالية التي فيها هذا الهمج الهامج الذي كان يعيش فيما يعرف اليوم باسم (أوربة)، وظل الصراع مشتعلا مدة خمسة قرون، بين النصرانية المحصورة في الشمال وبين الإسلام الذي يتاخمها جنوبا"[٢]، وقد اعتمدوا في هذه الحروب على حشد الجيوش وتعبئة أنصارهم من خلال "تبشيع (الإسلام) في عيونهم، وأن أهل الإسلام وثنيون، وأن رسول الإسلام كان وكان ... فلم يتركوا بابا من الكذب والتمويه والبشاعة

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف الشيخ محمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م، ص ٥٢.

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف الشيخ محمود محمد شاكر ، ص ٥٣.

إلا دخلوه، ليقروا معانيه في قرارة نفوس أتباعهم من الهمج الهامج"[١].

استمرت الحروب الصليبية قائمة قرنين كاملين، تراوحت نتائجها بين الانتصار والإخفاق حتى فشلت في تحقيق أهدافها، لكنها مثلت أول مرحلة من مراحل الصدام المتعلق بالهوية الثقافية، نتيجة للدمار الواسع الذي خلفته في بلاد المسلمين ومكتباتهم العلمية، ونتيجة لردود الفعل الأوربية والنتائج التي ترتبت على فشلها في تحقيق أهدافها، فالحضارة الإسلامية ظلت صامدة بعد هذه الحروب، وظلت متماسكة لها كيانها، وملامحها، وهويتها التي تميزت بها منذ نشأتها وحتى ذلك الوقت

ب – ردود الفعل في أوربا على سقوط القسطنطينية.

مثل سقوط القسطنطينية في يد المسلمين نقطة الصراع الثانية والحاسمة مع الثقافة العربية، فقد استشعر الأوربيون وقتها بخطر المسلمين عليهم، فمن خلال استيلاء المسلمين على القسطنطينية عاصمة حضارتهم يمكنهم بعد ذلك الغزو إلى بقية أوربا والسيطرة عليها بالكامل، غير أن سقوط القسطنطينية لم يقابل عند الأوروبيين باليأس والخمول، فقد قوبل وقتها "بإصرار مستميت على دفع هذا الخزي، وإماطة هذا الخوف والرعب، وإشعال نيران الغضب والحقد بحمية تأنف من الاستكانة لذل القهر الذي أحدثه (محمد الفاتح) ورجاله من المسلمين الظافرين، ومن يومئذ بدأت أوربة تتغير لتخرج من هذا المأزق الضنك، وبهمة لا تفتر ولا تعرف الكلل"[٢]، ونشأت منذ هذه اللحظة يقظة قوية لتحجيم الثقافة والحضارة الإسلامية وتقليل خطرها على أوربا، وقد مثل هذا الحدث نقطة الصراع الثانية والحاسمة.

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف الشيخ محمود محمد شاكر ، ص ٥٤.

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف الشيخ محمود محمد شاكر ، ص ٥٦.

اختلفت أساليب التجهيز والإعداد للمعركة الجديدة مع المسلمين، فلم يعد السلاح يجدي نفعا، أو يحدث نصرا، ولم تعد الجيوش الجرارة تضعف المسلمين وتغلبهم، فقد فشل السلاح في رد المسلمين والسيطرة عليهم في الحروب الصليبية؛ وهاهو يفشل مرة أخرى في الحفاظ على القسطنطينية، وقد كان قراراهم أن تتبدل أساليب الإعداد والمواجهة مع المسلمين، وهو ما انتبه له "بعض الرهبان والملوك وعقلاء الرجال، وبحثوا عن مخرج قبل أن يتفاقم الأمر، فكان بينا لعقلائهم أن سر قوة الحضارة الإسلامية هو العلم، علم الدنيا وعلم الآخرة، فعلم الآخرة وهو الدين، مقنع لجماهير البشر، فهم يدخلونه طوعا واختيارا، وعلم الدنيا كما رأوا، هو الذي مكن لهذه الحضارة الإسلامية أن تمتلك هذه القوة الهائلة المتماسكة التي شعروا أنها مستعصية على الاختراق"[(١)]، وهنا "بدأ الرهبان وتلاميذهم معركة أخرى أقسى من معارك الحرب، معركة المعرفة والعلم، الذي هيأ للمسلمين ما هيأ من أسباب الظفر والغلبة، لقد علموا الآن أن معركة السلاح لن تغني عنهم شيئا"[(٢)]، وبذلك بدأوا الإعداد لحرب جديدة تحددت أهدافهم فيها بدقة، لكن ما تبدل فيها هو أسلوب المواجهة.

لقد دخل العلم والثقافة في هذه المرحلة بديلا عن السلاح، فلو سيطر الأوربيون على العلم لحسموا المعركة مع المسلمين، ولتمكنوا من غلبتهم والسيطرة عليهم وعلى بلادهم ودفع خطرهم الذي يهددهم في بقية أماكن وممالك أوربا، خاصة وأن المسلمين قد سيطروا في ذلك الوقت على الأندلس، وعلى أطراف تحيط بأرض روسيا، إلى جوف قارة آسية، إلى جوف قارة إفريقية، وهاهم الآن يملكون عاصمة ملكهم القسطنطينية.

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف الشيخ محمود محمد شاكر ، ص ٥٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٦.

لقد مر طلب العلم والمعرفة في هذه الفترة الزمنية بمرحلتين، المرحلة الأولى، هي المرحلة التي أعقبت فشل النتائج المرجوة من الحروب الصليبية، وفي هذه المرحلة "انبعث منهم رجال يطلبون العلم والمعرفة في أرض الإسلام ما استطاعوا، في المشرق وفي الأندلس ... في إصرار لا يتزعزع، وفي دأب لا يعوقه ملل، على أن تصلح الخلل الواقع في الحياة المسيحية، وعلى تحصيل العلم والمعرفة من دار الإسلام بكل وسيلة ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، رجاء أن تجد مخرجا من هذا المأزق الضنك الذي حصرت فيه"(١)، وقد ظهر في هذه المرحلة الأولى رجال من طبقة روجر بيكن الإنجليزي (١٢١٤-١٢٩٤م/٦١١- ٦٩٣هـ)، وتوما الإكويني الإيطالي (١٢٢٥-١٢٧٤م/٦٢٢-٦٧٣هـ)، الذي عكف بجهد على مؤلفات علماء المسلمين وفلاسفته ومتكلميه كابن رشد وابن سينا وغيرهم، فأخذ يدرسها وينقحها ويعيد النظر فيها مرات ومرات بهدف الإفادة وتحقيق النفع منها.

أما المرحلة الثانية من طلبهم للعلم فكانت أكثر تنظيما، وأكثر تحديدا للأهداف المرجو تحقيقها، وتبعا لذلك كانت نتائجها مختلفة عن سابقتها، وقد جاءت هذه المرحلة بعد سقوط القسطنطينية، فكانت المثابرة والتأكيد على طلب العلم أكبر وأقوى.

كان الهدف في هذه الفترة الزمنية تحقيق نهضة علمية تنافس المسلمين وتصلح ما ألم بالمسيحية من خلل وزلل، ولم يكن لديهم آنذاك إلا علوم المسلمين نظرا لريادتهم في الجانب المعرفي والعلمي والثقافي، فانكب رهبانهم وعلمائهم على علوم المسلمين يدرسونها ويترجمونها إلى لغاتهم، وبدأت يقظة أوربية نحو العلم "لا تعرف الإغماض، وباليقظة المتوهجة دار الصراع في جنبات أوربة بين جميع القوى التي كانت تحكم جماهير الهمج الهامج، ومن قلب هذا الصراع خرجت طبقة

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف الشيخ محمود محمد شاكر ، ص ٥٩ وما بعدها.

إصلاح خلل المسيحية الشمالية مرة أخرى، فخرج الراهب الألماني مرتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦م/٨٩٤-٩٥٣هـ)، والراهب الفرنسي جون كلفن (١٥٠٩-١٥٦٤م/٩١٤-٩٧١هـ)، وخرج السياسي الإيطالي نيكولو مكيافلي (١٤٦٩-١٥٢٧م/٨٧٠-٩٣٤هـ)، وخرج أيضا صراع اللغات واللهجات المتباينة طلبا لاستقرار لغة موحدة لكل إقليم، وإخراج سيطرة (اللاتينية) العتيقة من طريق الرهبان والعلماء والكتاب لكي يمكن نشر التعليم على أوسع نطاق بين جماهير الهمج الهامج من رعايا الكنيسة، وتاريخ طويل حافل متنوع، وجهاد مرير قاس، في سبيل اليقظة العامة والتنبه والتجمع لإعداد أمة مسيحية قادرة على دفع رعب الترك (أي المسلمين) عن أرض أوربة المقدسة، وبدأت اليقظة ذات الهدف الواحد الذي لا يغفل عنه راهب ولا عالم، ولا صغير ولا كبير، ولا عامي ولا متعلم، ولا رجل ولا امرأة، ومع اليقظة تفجر أعظم سيل يكتسح أمية الهمج الهامج ويخرجه من أغلال الجهالة، ويجعل هذا الهدف الواحد مستقرا في جوف العظام، مع البغضاء والحقد، ومع التصميم والإرادة، ومع اليقظة والتنبه"[(١)].

مثلت هذه المرحلة بداية التنبه والاهتمام من أوربا بالعلم والثقافة، فقد أدركوا قيمة العلم والثقافة، وإذا كانت هذه المرحلة أولى خطوات أوربا نحو العلم والثقافة، فقد كان غاية ما تطلعوا إليه في هذه المرحلة الزمنية من دراسة علوم المسلمين، أن يحققوا نهضة علمية توازي النهضة التي وصل إليها المسلمون حتى يتمكنوا من خلالها أن يبارزوا المسلمين في ميدان تفوقهم العلمي، ولم يكن هدفهم الأول السيطرة الثقافية على المسلمين، ومحو حضارتهم، وتذويبها، وتبديل هويتهم، وتوجهيهم في الاتجاه الذي يريدون – وهو ما حدث فيما بعد – وذلك نتيجة لتماسك الثقافة والحضارة الإسلامية آنذاك، وبذلك نرى أن هذه المرحلة لم تضعف

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف الشيخ محمود محمد شاكر، ص ٦٥.

فيها الهوية الثقافية العربية مرة واحدة بل كانت متماسكة ولها ملامحها، على الرغم من ضراوة الحروب الصليبية وما حدث فيها من إبادة ثقافية لمكتبات المسلمين وعلومهم، وعلى الرغم من تنبه أوربا لقيمة العلم وتوجههم لدراسة علوم المسلمين بعدما تقدم المسلمون عليهم في فتح القسطنطينية، لكن كانت هذه الأحداث بمثابة الجذور البعيدة للضعف المعاصر، باعتبارها مثلت نقطة الصراع الأولى، ومن هنا تبرز قيمة الحديث عنها والتأصيل لها.

وعلى الجانب الآخر، إذا كانت نتائج النهضة العلمية التي أعقبت الحروب الصليبية محدودة في أوربا، إلا أنها تتناسب مع طبيعة المرحلة، لأنها مهدت للمرحلة الثانية التي بدأت بعد سقوط القسطنطينية، وهي مرحلت اكتملت فيها رؤيتهم، وتبلورت أهدافهم فيها بصورة دقيقة، فقد اجتهدوا في العلم اجتهادا لا نظير له، وانقطعوا له انقطاعا تاما، باعتباره السبيل الوحيد لرد المسلمين، فانكبوا على علوم المسلمين يأخذون عن علمائها ويترجمونها ويبنون عليها حتى يزيلوا ما علق بهم من جهل وتأخر، وكانت دراستهم تسير وفق خطط منظمة ودقيقة، نتج عنها نهضة علمية تحولت بفضلها أوربا من العصور الوسطى التي سادها الجهل والظلام والتأخر إلى العصور الحديثة، وبذلك يعد سقوط القسطنطينية في أيدي المسلمين تاريخ التحول من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة في أوربا، وسوف أتناول هذه المرحلة بالتفصيل في الفصل الثاني من هذا البحث.

المبحث الثاني: أثر الهوية الثقافية وانعكاسها على الحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة

إذا أردنا أن نبحث في تأثير الهوية الثقافية وانعكاسها على الحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة الزمنية، فحينئذ يجب البحث أولا في صلة الحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة الزمنية بالثقافة والحضارة الإسلامية، بالإضافة إلى البحث في نقاط القوة والضعف في الحياة الأدبية والنقدية التي أثرت في الهوية الثقافية لهذه المرحلة الزمنية، بالإضافة إلى الحديث عن المرجعية الثقافية والتراثية للحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة الزمنية.

أ- الحياة الأدبية والنقدية وصلتها بالثقافة الإسلامية في هذه المرحلة.

إذا أردنا أن نبحث في تأثير الهوية الثقافية وانعكاسها على الحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة الزمنية، فيجب التأكيد أولا على أن فهم الحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة لا يمكن أن نصل إليه بمعزل عن الصورة الكلية للواقع الثقافي والحضاري للمسلمين آنذاك، وإذا نظرنا إلى هذه المرحلة يمكننا القول أنها بدأت مع نهايات العصر العباسي الثاني (١٢٥٨م)، وبدايات الدولة الأيوبية (١١٧٤-١٢٥٠م)، ودولة المماليك (١٢٥٠-١٥١٧م)، وجزءا من دولة العثمانيين (١٢٩٩-١٩٣٢م)، وقد كان من أبرز الأمور التي أثرت في هذه المرحلة الزمنية هي الحروب الصليبية، وسقوط الدولة العباسية وما تبعها من صراعات وحروب مرت بها الأمة الإسلامية في هذه الفترة الزمنية.

ومع الأحداث السياسية العصيبة التي مرت بها الأمة الإسلامية في هذه المرحلة الزمنية، فإن الحضارة والثقافة الإسلامية في هذه المرحلة كانت متماسكة في صورتها الكلية وكان لها وجود وتأثير ملموس، "فقد كان العلماء حين يؤلفون كتاب تراجم عاما يجمعون فيه كل من عاشوا من النابهين في هذا الوطن الكبير، وكانوا إذا ألفوا كتابا في تراجم علم كالقراءات أو التفسير أو النحو أو حتى في فرع كفقه الشافعية أو المالكية أو الأحناف أو الحنابلة جمعوا فيه علماءه في جميع

البلدان العربية، وبالمثل حين يؤلفون أحيانا في تراجم الشعراء يجمعون في مؤلفاتهم كل الشعراء في جميع الأقاليم العربية، متناسين، بل مهملين، الفواصل السياسية والجغرافية بين الأقاليم والبلدان، وكأنها في رأيهم أقواس وهمية في المخططات السياسية والجغرافية، لا تدل أي دلالة على فوارق علمية أو أدبية"(١).

وبناء على ذلك يمكننا القول، بأن الحركة العلمية والثقافية في أي دولة إسلامية كانت بمثابة "فرع من فروع الشجرة الكبرى، شجرة الحركة العلمية العربية العامة، إذ نلتقي في كل مكان بأسماء الكتب العلمية المهمة المعروفة لنا في بغداد وغير بغداد، وكأنه كان هناك نهر كبير للثقافة العربية، كانت جداوله ونهيراته تجري في كل مكان وفي كل دار من أقصى الشرق في خراسان إلى أقصى الغرب في الأندلس"(٢)، وهذا يؤكد على تماسك الحضارة والهوية الثقافية العربية في هذه المرحلة الزمنية بالرغم مما أصابها من صراع وتقسيم على المستوى السياسي.

أما ما يتعلق بالحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة، فما ينطبق على الثقافة العربية في صورتها الكلية ينطبق على الحياة الأدبية والنقدية في صورتها الجزئية باعتبارها جزءا من كل، فقد كانت الحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة الزمنية لها سماتها وخصائصها وملامحها وهويتها الثقافية العربية المميزة والخاصة بها، ومع انفتاحها وتلاقحها وتفاعلها مع غيرها من الثقافات الأخرى، إلا أنها احتفظت بهويتها الثقافية العربية الخالصة، وهذه سمة ميزت الحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة، لأننا سنلحظ بعد ذلك تحولا شديدا في واقع الحياة الأدبية والنقدية.

---

(١) تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية، العراق، إيران)، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الثانية، ص ٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٢.

ب- نقاط القوة والضعف في الحياة الأدبية والنقدية لهذه المرحلة.

إذا كانت الحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة الزمنية مرتبطة كما ذكرت بالحضارة والثقافة الإسلامية في صورتها الكلية، فسوف ننتقل هنا إلى النقطة التالية، وهي النقطة المتعلقة بتحديد قوة الحياة الأدبية والنقدية أو ضعفها في هذه المرحلة، وهذه النقطة يمكن تحديدها من خلال دراسة الواقع الأدبي والنقدي لهذه المرحلة الزمنية، وسوف أتوقف عند الملامح والسمات العامة للحياة الأدبية والنقدية في هذا المرحلة، وذلك نظرا لما تقتضيه طبيعة دراستنا التي تبحث في العلاقة بين الهوية الثقافية وانعكاسها على الحياة الأدبية والنقدية، دون الخوض في الخصائص الفنية الدقيقة لهذه العصور الأدبية، فهذه أمور تناولتها المؤلفات التي أرخت للأدب والنقد العربي في هذه الحقب الزمنية.

وإذا بحثنا في واقع الحياة الأدبية والنقدية بصورة عامة في هذه المرحلة، نجد فيها مجموعة من نقاط القوة التي حافظت على قوة الهوية الثقافية العربية وبقاءها صامدة في وجه الهجمات الصليبية المتكررة التي كانت الحدث الأبرز آنذاك، أما نقاط القوة فنجدها في اهتمام الحكام المسلمين بعلوم اللغة والأدب والنقد، فقد كان الاهتمام بهذه العلوم يأتي في إطار النهضة العلمية في جميع العلوم الإسلامية من قبل الحكام المسلمين آنذاك، فقد نشطت حركة البحث والتأليف والتدريس في المساجد والمدارس التي أنشأها الحكام المسلمين، كما انتشرت المكتبات بصورة كبيرة، وانتشر اقتناء الكتب والحفاظ عليها، كما كثرت رحلات العلماء بين الأقطار الإسلامية لنشر العلوم اللغوية والأدبية وتدريسها، وقد شجع الحكام المسلمين على ذلك وساهموا في الحفاظ على امتداد النهضة العلمية الإسلامية.

ومن مظاهر القوة في هذه المرحلة الزمنية المحافظة على التقليد الشعري العربي وحرص الكتاب على "ألوان معينة من الثقافة يتزودون بها ولا تخلو مكتباتهم منها، منها محفوظهم الوفير من الشعر القديم والنثر، وكان بعض الأدباء يبالغ في الحفظ فيحفظ كتبا بتمامها، وكانت هناك كتب تحظى دون غيرها بالعناية والحفظ

والدراسة"[١].

ومن مظاهر القوة في هذه المرحلة الزمنية أيضا، الاهتمام بشرح المؤلفات الأدبية التراثية، فهناك كتب "قام على شرحها وتذيلها جماعة العلماء واللغوين والأدباء، وعلى رأس هذه الكتب (الحماسة) لحبيب بن أوس أبي تمام، وكانت لها مكانة خاصة في نفوس الأدباء، وقلَّ أن نجد أديبا معروفا منهم لم يقرأ الحماسة ولم يحفظ منها كثيرا إن لم يكن قد حفظها كلها ... ويأتي مع الحماسة ديوان أبي الطيب المتنبي، وكان عدة الأدباء وزاد الشعراء يستقون منه كل طريف بديع... والكتاب الثالث مما اهتم به الناس (مقامات الحريري) كان يحفظها الأدباء والعلماء مع شرحها لما تحويه من ثروة لغوية وأدبية"[٢].

ومن مظاهر القوة في هذه المرحلة الزمنية أيضا، اعتزاز الأدباء والنقاد العرب بعروبتهم وفخرهم بها، فلم يربطوا تقدمهم وتفوقهم بمقدار اطلاعهم على اللغات الأجنبية وإحاطتهم بها كما حدث للأدباء والنقاد العرب بعد ذلك، بل كانوا يفخرون بعروبتهم وتراثهم الأدبي والنقدي، كما أن الاعتزاز بالعروبة لم يكن من قبل الأدباء والنقاد العرب وحسب، بل كان من غير العرب أيضا فقد كان هناك العديد من الأدباء والنقاد الأعاجم الذين كانوا يفتخرون بحديثهم وانتسابهم إلى العربية لما لها من قدسية ومكانة، كما أسهم هؤلاء العلماء بجهود وفيرة في ميدان الدراسات الأدبية والنقدية. ومن مظاهر القوة في هذه المرحلة الزمنية أيضا، ظهور بعض الفنون الأدبية التي برزت في هذه المرحلة بقوة، ومن هذه الفنون فن المقامات، وفن القصة، وفن الخطابة الدينية التي احتاجها المسلمون بقوة لاستنهاض الهمم في الجهاد ضد الصليبين، والرسائل الديوانية والإخوانية، وأدب

(١) الأدب في العصر الأيوبي، الدكتور محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الطبعة الأولى ١٩٩٠م، ص ١٩٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٣.

الرحلات والأسفار، وشعر الجهاد ووصف المعارك والبطولات.

جميع الأمور السابقة ساعدت في بقاء الهوية الثقافية العربية صامدة وباقية ومحافظة على مرجعيتها العربية الخالصة؛ وفي مقابل ذلك، كان هناك العديد من العوامل التي شكلت البدايات الأولى لضعف الهوية الثقافية في هذه المرحلة الزمنية، وقد تمثلت هذه العوامل في المحاور الآتية:

- تفتت الدولة الإسلامية وضعفها نتيجة للحروب الصليبية الهمجية التي حاولت محو الحضارة الإسلامية وتفتيتها وإزالة كل معالمها العلمية والحضارية من البلدان التي غزتها.
- حالة الضعف العام التي دخلت فيها الدولة الإسلامية بعد سقوط الدولة العباسية الثانية وتفتتها إلى دويلات متفرقة، وهذا التفرق إن لم يؤثر في الجانب العلمي والحضاري للمسلمين، إلا أنه كان بداية التفتت والضياع للأمة الإسلامية، فقد كثر القتال وكثرت الحروب والصراعات بين الدول الإسلامية وبعضها، وهذا ما أثر سلبا على حالة الاستقرار ومسيرة الحياة العلمية والثقافية للأمة الإسلامية فيما بعد.
- محاولة تشويه هذه المرحلة الزمنية ومحاولة رسم صورة ذهنية من قبل المستعمرين والمستشرقين عن الدول الإسلامية التي وجدت في هذه الحقبة الزمنية، فدائما ما كانوا يصورونها على أنها عصور ضعف وتمزق وتبعية واضمحلال ثقافي وفكري، كما أنها كانت عصور صنعة واهتمام بالمحسنات البديعية، وخلت من التجديد والتطوير للأدب والنقد، وهذا يخالف الحقيقة، فقد كانت مصر والشام معقل الحضارة والثقافة بعد سقوط بغداد وكثير من الدول الإسلامية، فضلا عن نشاط الحركة الأدبية والنقدية، وهذا ما نقف عليه من خلال أسماء العديد من الأدباء والنقاد الذين برزت أسمائهم وأعمالهم الأدبية والنقدية حتى وقتنا الحالي، ومن هؤلاء ابن سعيد المغربي (١٢١٤-١٢٨٦م) الذي ألف المغرب في حلى المغرب، والمشرق في أخبار المشرق، والمرقص

والمطرب، وملوك الشعر، وعماد الدين الأصفهاني (١١٢٥-١٢٠١م) صاحب كتاب خريدة القصر وجريدة العصر، والقاضي الفاضل (١١٣٥-١٢٠٠م) صاحب الرسائل البلاغية الشهيرة، وابن الأثير (١١٦٣-١٢٣٩م) صاحب كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، والوشي المرقوم في حل المنظوم، وكتاب الاستدراك في السرقات، وأبو الفضل الميداني (...-١١٢٤م) صاحب كتاب شرح المفضليات، ومجمع الأمثال، وغيرهم العديد من النقاد والأدباء في هذه المرحلة الزمنية؛ وقد بين الدكتور محمد زغلول سلام أن الاستعمار الثقافي لم يكن يسمح بأن تبرز قيمة الأدباء والنقاد في هذه المرحلة الزمنية ودورهم في الحفاظ على التراث والثقافة الإسلامية، فمن"عجب أن دراسات المستشرقين لهذا العصر لا تشير إلا إلى أفراد معدودين، ولا تشير إلى الدور الكامل المتماسك، فهم حين يتكلمون عن العصر إنما يشيرون إلى الغزالي وابن رشد والزمخشري والفخر الرازي من المفكرين، ومن الأدباء إلى الحريري والطغرائي وابن الفارض، وليس هؤلاء هم كل من كان، وليست آثارهم كل الآثار الفكرية والأدبية، بل إن دراسات المستشرقين لم تتناول من الأدباء والمفكرين والشعراء من كانت لهم روح قومية، أو من كان لهم دور في حركات البعث الإسلامي العربي، وكان هذا الإغفال متعمدا أغلب الظن"[(١)]، وهذا ما ساهم في ضعف الهوية الثقافية من خلال محو حضارة هذه القرون الإسلامية، وتشويه نتاجها الأدبي والنقدي من قبل المستعمرين والمستشرقين، وكأن الأمة الإسلامية وحضارتها الأدبية والنقدية والفكرية انتهت بانتهاء العصر العباسي الثاني، وهذا ما شاع لدى كثير من الدارسين والطلاب العرب المعاصرين للأسف.

- كان من نتائج العنصر السابق، ضعف الدراسات الأدبية والنقدية حول هذه

(١) الأدب في العصر الأيوبي، الدكتور محمد زغلول سلام، ص ١٨٦.

المرحلة الزمنية من قبل العرب في مطلع العصر الحديث، وهذه قضية في غاية الخطورة نبه إليها الدكتور محمد زغلول سلام في حديثه عن واقع الحياة الأدبية والنقدية في عصر الأيوبين، وهو من العصور الأدبية التي عاصرت الغزو الصليبي وعاشت في قلب أحداثه وكان لها أثر كبير في ردعه والتصدي له في هذه الفترة الزمنية، فقد بين الدكتور محمد زغلول سلام أن هذا العصر لم يأخذ حقه في الدراسات الأدبية والنقدية، خاصة في إقليم الوسط سوريا ومصر، فقد جمعت مصر وسوريا في هذا العصر ما بقي وما أمكن من تراث المسلمين وضنت به على الضياع فصانته في ظل الهجمات الصليبية، وقد بين الدكتور محمد زغلول سلام أنه من الواجب والصواب أن يولي الباحثون عناية فائقة بدور مصر وسوريا في حفظ التراث في هذه المرحلة الزمنية، كما ذهب إلى أن السبب في ذلك يتمثل في "اهتمام الناس في مطلع النهضة العلمية في مصر والشام في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وأوائل التاسع عشر كان يتجه إلى عصر العباسيين والأمويين، ينشدون من ذلك البحث وراء العناصر القوية، التي دفعت العلم والثقافة والأدب ليتخذوا منها عمدا ومحركات ودعائم تدعم الحركة الجديدة وتدفعها دفعات قوية"[1].

ج – المرجعية الثقافية والتراثية للحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة.

حينما نبحث في المرجعية الثقافية للحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة، يمكننا التأكيد على أنها كانت مرتبطة بحالة التماسك الحضاري للمسلمين آنذاك، وهذا ما يجب التأكيد عليه مرارا وتكرارا في الحديث عن الهوية الثقافية وانعكاسها على الحياة الأدبية والنقدية لهذه المرحلة الزمنية، وذلك نتيجة لما أشيع من قبل المستشرقين عن حالة الضعف الأدبي والنقدي لهذه المرحلة الزمنية.

(١) الأدب في العصر الأيوبي، الدكتور محمد زغلول سلام، ص ١٨٥.

وهنا نقول بأن المرجعية الثقافية للحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة كانت هي المرجعية التراثية العربية، فقد انطلق أدب هذه المرحلة ونقدها من البناء على التراث الأدبي والنقدي للأمة العربية، وإذا كان هناك بعض جوانب الضعف في الحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة نتيجة للأحداث السياسية العصيبة التي مرت بها الأمة العربية في هذه المرحلة الزمنية، إلا أن المرجعية الفكرية للحياة الأدبية والنقدية كانت هي المرجعية العربية؛ وهذا أمر في غاية الأهمية يجب أن نؤكد عليه باعتبار دراستنا عن قضية الهوية الثقافية، فالمرجعيات الثقافية، والتراثية، والفكرية، هي التي تحدد لنا بوصلة الهوية الثقافية بدقة، ولا يمكننا أن نتحدث عن قضية الهوية الثقافية دون البحث في المرجعيات الثقافية والتراثية والفكرية للحياة الأدبية والنقدية في أي مرحلة من المراحل التي سنعرض لها.

وهنا أمر يجب التنبيه عليه، فمن الواجب علينا أن نفرق بين قوة أو ضعف الحياة الأدبية والنقدية في بعض مراحل الأمم والحضارات، وبين مرجعية الحياة الأدبية والنقدية، فقد يقوى أدب أمة من الأمم في بعض مراحله، لكن لا تكون هذه القوة نابعة من مرجعية الأمة وثقافتها وتراثها، وإنما نتيجة لتأثر هذه الأمة بثقافة أمة أخرى، وقد تمر الحياة الأدبية والنقدية بحالة من الضعف، إلا أنها تتمسك مع ذلك بمرجعيتها التراثية والثقافية، وهو ما حدث في هذه المرحلة، فمع مرور الحياة والأدبية والنقدية في هذه المرحلة ببعض مظاهر الضعف، إلا أنها حافظت على مرجعيتها التراثية والثقافية العربية.

وفي نهاية حديثنا عن هذه المرحلة الزمنية، يمكننا التأكيد على أن الحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة الزمنية كان لها ملامحها وهويتها الثقافية العربية الخالصة المتماسكة، بالرغم من عوامل الضعف التي مرت بها، فقد كان هناك جهاد ومثابرة في الحفاظ على التراث الأدبي والنقدي للأمة الإسلامية من قبل الدول الإسلامية التي ظلت صامدة في مواجهة الصلبيين؛ أضف إلى ذلك – وهذا هو الأهم– أن الهوية الثقافية في هذه المرحلة كانت عربية خالصة، كما أنها كانت

ثابتة في اتخاذ التراث العربي مرجعية ثقافية وأدبية ونقدية، حتى وإن كان هناك بعض جوانب الضعف وعدم التجديد في الجانب الأدبي والنقدي، إلا أن المرجعية كانت ثابتة، وكانت عربية خالصة، وهذا ما يجب أن نؤكد عليه، وذلك حتى نقف على حجم التبدل والتغيير الذي حدث للهوية الثقافية العربية في المراحل الزمنية التالية، فبضدها تعرف الأشياء وتميز، فكما ذكرت قد يضعف الأدب والنقد في مرحلة زمنية لكنه يكون ثابتا في مرجعيته، وهذا هو الأهم، فكلما كانت المرجعية ثابتة كلما كان النهوض أيسر وأسرع لأن الوجهة والطريق يكون بينا واضحا، وكلما كانت المرجعيات الثقافية متعددة، وغير متجانسة مع ثقافة الأمة وفكرها كلما بَعُدَ الرجوع، وطال التخبط والتيه الثقافي والفكري، وهو ما حدث للهوية الثقافية العربية في المراحل المقبلة.

الفصل الثاني: المرحلة الثانية من مراحل ضعف الهوية الثقافية (١٥٠٠-١٩٥٠م)

المبحث الأول: الأسباب التي أدت إلى ضعف الهوية الثقافية في هذه المرحلة

في هذه المرحلة بدأت تظهر نتائج الجهود العلمية التي بذلها الأوربيون في المرحلة السابقة، وآتت هذه الجهود ثمارها، وبدأ العمل في هذه المرحلة يتبلور لديهم في صورة مشاريع علمية متاكلمة لها رؤيتها، وأهدافها، وغاياتها المحددة، وبعدما كانت الجهود لإصلاح المسيحية ومحاولة النهضة الأوربية في المرحلة السابقة جهودا فردية، أصبحت الجهود الإصلاحية في هذه المرحلة جهودا جماعية من خلال العديد من المشاريع العلمية الواضحة، وفي هذه المرحلة انتهت العصور الوسطى التي سادها الظلام والجهل، ودخلت أوربا مرحلة العصور الحديثة نتيجة لتطور العلوم والمعارف التي أخذوها عن المسلمين، وفي مقابل النهضة العلمية في أوربا، بدأ العالم الإسلامي في الضعف بعد الإحساس بالفخر بفتح القسطنطينية، و"تحول ملوك المسلمين إلى مجرد ملوك، إذ وضعوا مصاحفهم ورسالة الإسلام جانبا، وأحلوا رؤوسهم تيجان الملك الوراثي الذي لا يعرف رسالة خارج دائرة القصر والحشم"[(١)]، وبهذا رجحت كفة الأوربيين على كفة المسلمين، وبدأت الموازين والأحوال تتبدل وتتغير.

وبالإضافة لما سبق، فقد بدأت موازين القوة العالمية في الدول الأوربية تميل من دولة إلى دولة، وتعاقبت موازين القوة لعدة دول ملكت زمام الأمور العالمية حتى وقتنا الحاضر، ففي البداية كانت الغلبة لفرنسا، وكانت هي الدولة المسيطرة على العالم، سواء في أوربا، أو في الدول الإسلامية والعربية والإفريقية، وتبعها في

(١) الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، الدكتور عبد المتعال محمد الجبري، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، ص ١٦.

ذلك بريطانيا، التي تنافست معها حتى ملكت زمام الأمور العالمية، وفي النهاية حتى الآن، انتقلت القوة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وهنا يجب الإشارة لعدة أمور:

الأمر الأول: أن كل دولة من هذه الدول كانت تنافس الأخرى بالعديد من الوسائل السلمية والثقافية تارة، والحربية تارة أخرى للسيطرة على بلدان أوربا كاملة، وعلى بلدان العالم الإسلامي والإفريقي، وذلك حتى تكون الغلبة والتحكم في مصائر الأمور عالميا بيد كل دولة من هذه الدول، ففي الجانب الأوربي خاضت هذه الدول فيما بينها حروبا دموية متعدة كان آخرها الحرب العالمية الثانية التي كانت خاتمة الحروب الأوربية وبداية الوحدة والائتلاف بين هذه الدول، وفي العالم الإسلامي، تسابقت هذه الدول فيما بينها لاستعمار بلدان العالم الإسلامي واستغلال ثرواته وتوجيهه فكريا وثقافيا، وبقدر ما كانت تتوسع كل دولة في مستعمراتها في بلدان العالم الإسلامي والبلدان الإفريقية بقدر ما كانت تتحكم في العالم ويكون لها الغلبة على الدولة الأخرى، وقد خاضت هذه الدول نزاعات متعددة فيما بينها للسيطرة على مستعمرات بلدان العالم الإسلامي، وهو ما حدث على وجه الخصوص في صراع النفوذ في المستعمرات الشرقية والإفريقية بين فرنسا وإنجلترا.

الأمر الثاني: أن حالة التنازع والصراع على النفوذ بين الدول الأوربية الكبرى، لم تكن تؤثر على موقفهم من الخلافة والحضارة الإسلامية التي كانت قائمة في هذا الوقت، فمع تناحر هذه الدول فيما بينها وتنازعها، إلا أن الموقف من الخلافة والحضارة الإسلامية والمسلمين كان موحدا، فقد كانت جميع هذه الدول تدرك أن الحضارة الإسلامية يجب أن تنتهي، ويجب أن يتم السيطرة عليها وإضعافها حتى لا تقوم لها قائمة مرة أخرى، ولذلك كانت وسائل سيطرتهم، والأساليب التي اعتمدوها في هذه المرحلة للسيطرة على الثقافة العربية والإسلامية موحدة، فهناك هدف موحد يجمعهم فيما يتعلق بالعالم العربي والإسلامي، لكن

التوسع في استخدام هذه الأساليب، وتوظيف نتائجها، كان يختلف تبعا لأهداف وتطلعات كل دولة مستعمرة على حدة.

الأمر الثالث: إذا كان هدف الأوربيين من دراسة علوم المسلمين في المرحلة الأولى التي تحدثنا عنها تحقيق نهضة علمية توازي النهضة العلمية والثقافية التي قام بها المسلمون، فالهدف في هذه المرحلة تعمق وكان أشد تأثيرا، إذ عمد الأوربيون إلى دراسة المجتمعات الإسلامية وطبائعها وعلومها بهدف التعرف على الطرق التي يسيطرون بها على هذه البلدان الإسلامية ثقافيا وفكريا وعسكريا، وهو ما تم بالفعل حينما استعمرت الدول الأوربية الدول الإسلامية ووجهتها في الوجهة التي تريدها، فمواقف الأمس المتعلقة باالصراع مع المسلمين لم تغب، وسقوط القسطنطينية حاضر في أذهانهم وموجه لها، لكن أساليب المواجهة مع المسلمين اختلفت كما بينت، كما أنها أصبحت أشد إصرارا وبأسا وعزيمة، وذلك في مقابل ضعفٍ وتأخرٍ ألم بالمسلمين ونزل بهم، وسوف أتوقف على الأحدث والوسائل التي أدت إلى ضعف الهوية الثقافية العربية في هذه المرحلة الزمنية.

أ- الاستشراق.

كان أول خطوة جادة اتخذها الأوربيون في هذه المرحلة، أنهم تجاوزوا أخذ العلم عن علماء المسلمين، إلى توجيه طائفة من الدارسين الذين نبغوا في المرحلة السابقة إلى بلاد المسلمين بهدف دراسة عادات المجتمعات الإسلامية وإعداد تقارير وافية عن جميع ما يتعلق بها، بحيث يسهل غزو هذه المجتمعات والإيقاع بها ثقافيا وعسكريا، وقد عرف هؤلاء الدارسين في أوربا باسم (المستشرقين)، وكان لهم أعظم الأثر في غزو المجتمعات العربية والإسلامية التي درسوها وعاشوا فيها، وكانوا أكبر ذراع لجهاز الاستعمار الذي قام بغزو المجتمعات الإسلامية وتقسيمها وتفكيكها بعد ذلك، وجهاز التبشير الذي قام بدعوات التنصير في العالم الإسلامي، وبذلك ندرك خطر الاستشراق وأثره في التأثير على الهوية الثقافية العربية والإسلامية والنيل منها.

وقد بين الشيخ محمود شاكر أن المستشرقين "أهم وأعظم طبقة تمخضت عنها اليقظة الأوربية، لأنهم جند المسيحية الشمالية الذين وهبوا أنفسهم للجهاد الأكبر، ورضوا لأنفسهم أن يظلوا مغمورين في حياة بدأت تموج بالحركة والغنى والصيت الذائع، وحبسوا أنفسهم بين الجدران المختفية وراء أكداس من الكتب، مكتوبة بلسان غير لسان أممهم التي ينتمون إليها، وفي قلوبهم كل اللهيب الممض الذي في قلب أوربة، والذي أحدثته فجيعة سقوط القسطنطينية في حوزة الإسلام"[(١)].

وقد تحدثت العديد من المراجع العربية[(٢)] عن التعريف بالاستشراق، وتاريخه، وأدواره، وأهم المستشرقين، ومؤتمراتهم، وأثرهم في نهضة أوربا في العصر الحديث، وجهود جميع الدول الأوربية المستميت في رعايتهم خاصة في فرنسا، وبريطانيا، والولايات المتحدة، وألمانيا، وأثرهم في خدمة الاستعمار والتبشير الذي تم في دول الإسلام التي استعمرتها البلدان السابقة، لكن ما يعنينا الإشارة إليه هنا ونحن نتحدث عن قضية الهوية الثقافية؛ خطورة التقليل من شأن الاستشراق وما قام به المستشرقون تجاه العلوم الإسلامية والعربية، أو القول بأنه لم يحقق الغاية التي قام من أجلها، أو إنكار وجوده من الأساس باعتباره ضربا من الأكاذيب والأوهام، والأهم من ذلك كله، محاولة البعض الهروب من الواقع المرير

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف الشيخ محمود محمد شاكر، ص ٧٣.

(٢) من هذه المؤلفات: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، الدكتور أحمد سما يلوفتش، دار المعارف، الطبعة الأولى ١٩٨٠م، المستشرقون والتراث، الدكتور عبد العظيم الديب، دار الوفاء، الطبعة الثالثة ١٩٩٢م، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير، الاستشراق، الاستعمار)، تأليف عبد الرحمن حسن حبنكة، دار القلم دمشق، الطبعة الثامنة ٢٠٠٠م، الاستشراق رسالة الاستعمار، الدكتور محمد إبراهيم الفيومي، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.

والأثر الذي خلفوه من خلال القول بأن دور المستشرقين قد انتهى وزال بعد اكتشاف أهدافهم الخفية وأكاذيبهم وشبهاتهم من قبل الكتاب والنقاد والمفكرين الإسلاميين.

لقد تنبه الدكتور إدوارد سعيد لهذه المشكلة، وبين أن الواجب علينا ألا نستهين بدور المستشرقين وألا نقلل من تأثيرهم الذي أحدثوه في الثقافة والعلوم العربية والإسلامية، فمن "الخطأ افتراض أن هيكل الاستشراق لا يزيد عن كونه هيكلا من الأكاذيب أو الأساطير، وأننا إذا ذكرنا الحقائق لدحض هذه وتلك فسوف ينهار البناء وتذروه الرياح، وأنا أعتقد شخصيا أن القيمة الكبرى للاستشراق تكمن في كونه دليلا على السيطرة الأوربية الأمريكية على الشرق، أكثر من كونه (خطابا) صادقا حول الشرق، وهو ما يزعمه الاستشراق في صورته الأكاديمية أو البحثية، ومع ذلك فعلينا أن نحترم ونحاول أن ندرك ما يتسم به خطاب الاستشراق من قوة متماسكة متلاحمة الوشائج، والروابط الوثيقة إلى أبعد حد بينه وبين المؤسسات السياسية والاقتصادية الاجتماعية التي تمنحه القوة، وقدرته الفائقة على الاستمرار"[(١)].

وللتدليل على هذه القوة المتماسكة بين الاستشراق ومؤسسات الدول الأوروبية السياسية والاقتصادية والعسكرية، بين الدكتور إدوار سعيد أن "أي مذهب فكري يستطيع الصمود دون تغيير، واستمرار التمتع بمنزلة العلم الذي يتعلمه الناس في المعاهد التعليمية والكتب والمؤتمرات والجامعات ومعاهد تخريج العاملين بوزارة الخارجية منذ عصر إرنست رينان في فرنسا في أواخر الأربعينات من القرن التاسع عشر حتى الوقت الحاضر في الولايات المتحدة الأمريكية، لا بد أن يكون أقوى

(١) الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، تأليف إدوارد سعيد، ترجمة الدكتور محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م، ص٥٠.

من مجموعة من الأكاذيب وحسب، وليس الاستشراق إذن خيالا أوربيا متوهما عن الشرق، بل إنه كيان له وجوده النطري والعملي، وقد أنشأه من أنشأه، واستثمرت فيه استثمارات مادية كبيرة على مر أجيال عديدة، وقد أدى استمرار الاستثمارات إلى أن أصبح الاستشراق باعتباره مذهبا معرفيا عن الشرق، شبكة مقبولة، تسمح منافذها بتسريب صورة الشرق إلى وعي الغربيين"[١].

ومن هذا المنطلق، فسوف تكون وقفتنا مع الاستشراق بالقدر المتعلق بقضية الهوية الثقافية التي ندرسها، فمن خلال الوقوف على أهدافه الحقيقة، سنقف على أثره في إضعاف الهوية الثقافية العربية، ليس هذا فحسب، بل أثره في محو الهوية الثقافية العربية، تمهيدا للسيطرة عليها وتوجيهها.

أهداف الاستشراق.

١ – أول مدخل لغزو المجتمعات ودراستها لا بد أن يمر من بوابة اللغة، فكيف يمكن فهم مجتمع ودراسة عاداته وتقاليده وثقافته ومعرفة نقاط ضعفه وقوته من غير دراسة لغته وإتقانها؟ ولذلك كان أول هدف للاستشراق دراسة اللغة العربية وإتقانها، خاصة وأن اللسان العربي كان صاحب السيادة المطلقة على العالم قرونا قبل ذلك طوالا، وكان الأوربيون يعرفون اللسان العربي من خلال التجارة وكان "لابد لهم أن يزداد عدد الذين يعرفون اللسان العربي ويجيدونه زيادة وافرة لحاجتهم إلى أن يعتمدوا اعتمادا مباشرا على الاتصال بالعلم الحي في علماء الإسلام، لكي يتمكنوا من حل الرموز اللغوية الكثيرة المسطرة في كتب العربية، ولا سيما كتب الرياضة والجبر والكيمياء والطب والفلك وسائر علوم الصناعة التي قل من يعرفها"[٢]، ولذلك عكف المستشرقون على اللغة

(١) الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، تأليف إدوارد سعيد، ص ٥٠.

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف الشيخ محمود محمد شاكر، ص ٧١.

يتعلمونها ويدرسونها ويتقنونها حتى يسهل لهم ما بعد ذلك.

٢- اختراق المجتمع العربي والإسلامي من خلال دراسة عقليته بصورة وافية، وقد ذلك من خلال مخالطة المسلمين في ديارهم والإقامة معهم، "فزحفوا زرافات ووحدانا في قلب دار الإسلام، على ديار الخلافة في تركية، وعلى الشام، وعلى مصر، وعلى جوف إفريقية وممالكها المسلمة، خرجوا وفي القلب حمية الحقد المكتم، وفي النفوس العزيمة المصممة، وفي العيون اليقظة، وفي العقول التنبه والذكاء، وعلى الوجوه البشر والطلاقة والبراءة، وفي الألسنة الحلاوة والخلابة والمماذقة، ولبسوا لجمهرة المسلمين كل زي، زي التاجر وزي السائح وزي الصديق الناصح وزي العابد المسلم المتبتل، وتوغلوا يستخرجون كل مخبوء عنهم من أحوال دار الإسلام، أحوال عامته وخاصته، وعلمائه وجهاله، وحلمائه وسفهائه، وملوكه وسوقته، وجيوشه ورعيته، وعبادته ولهوته، وقوته وضعفه، وذكائه وغفلته، حتى تدسسوا إلى أخبار النساء في خدورهن، فلم يتركوا شيئا إلا خبروه وعجموه، وفتشوه وسبروه، وذاقوه واستشفوه"[(١)]، وكانوا يدونون كل هذه الملاحظات ويدرسون طبيعة كل بلد إسلامي على حدة.

٣- نقل جميع المخطوطات العلمية التي تحمل علوم الإسلام المختلفة إلى أوربا، وما هو إلا قليل"حتى كان تحت يد الاستشراق آلاف مؤلفة من كتب دار الإسلام نفيسة منتقاة، مشتراة أو مسروقة، موزعة مفرقة في جميع أوربة وأديرتها ومكتباتها وجامعاتها"[(٢)] وقد ذكر العديد من المؤرخين جهود المستشرقين وطرقهم في سرقة أو شراء هذه المخطوطات، وقد عكفوا عليها

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف الشيخ محمود محمد شاكر، ص ٨٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٨١.

يحققونها ويدرسونها دراسة وافية بجهد كبير لايعرف الملل.

٤- توظيف النتائج التي توصلوا إليها في البنود السابقة توظيفيا فعالا يخدم أهدافهم، وهنا قام المستشرقون بإمداد علماء اليقظة في أوربا "بهذه الكنوز النفيسة من الكتب التي حازوها أو سطوا عليها، واطلاعهم على ما وقفوا عليه فيها، باذلين كل جهد ومعونة في ترجمتها لهم، وفي تفسير رموزها بقدر ما استفادوا من العلم بها، وأيضا اطلاع رهبان الكنيسة وملوكها على كل ما علموا من أحوال دار الإسلام، وما رأوه عيانا فيها، وما لاحظوه استبصارا"[١]، وقد ساعد هذا الأمر القادة الأوربيين على اتخاذ القرارات المتعلقة باستعمار البلاد الإسلامية ثقافيا وعسكريا وتقسيمها وتفكيكها بعد ذلك.

٥- رسم صورة ذهنية محددة للقاريء الأوربي عن الإسلام وثقافته ومجتمعاته والشخصية المسلمة، بحيث تتقوم هذه الصورة الذهنية على تشويه المسلمين واحتقارهم وتصويرهم لجمهور الأوربيين بصورة يستحيل معها أن يميلوا إلى الإسلام ويعتنقوه مرة أخرى، وإذا كان الرهبان والقادة قاموا بهذا الأمر في الماضي، إلا أن تأثيره كان أكبر من المستشرقين، فدائما ما كان كلامهم يساق على أن كاتب هذه الصورة "قد خبر وعرف وبذل كل جهد في الاستقصاء، وعلى منهج علمي مألوف لكل مثقف أوربي، وأنه وصل إلى هذه النتيجة التي وضعها بين يديه بعد خبرة طويلة وعرق وجهد وإخلاص، حتى لا يشك قاريء في صدق ما يقرؤه"[٢]، وبذلك يحصنوا شعوبهم من اعتناق الإسلام أو الميل له، وهي المشكلة التي كانت تحدث حينما يتعلق جنودهم وأتباعهم بالمسلمين حينما يخالطونهم في الحروب والغزوات، أو في التجارة

(١) المرجع السابق، ص ٧٢.

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف الشيخ محمود محمد شاكر، ص ٨٩.

والرحلات، وكانوا يرون لطفا وأخلاقا ودينا وعادات منهم تغاير الصورة المشوهة التي رسمها لهم قادتهم ورهبانهم عن المسلمين، فكانوا يدخلون في الإسلام ويصبحون من أكبر المدافعين عنه، وهو ما حدث مع المسلمين في عزة انتصارهم وأوج فتوحاتهم بعدما فتح محمد الفاتح القسطنطينية ودخلها، فأمن النصارى على دينهم وأموالهم وأعراضهم ومعتقداتهم؛ ولذلك كتب المستشرقون وألفوا في جميع العلوم الإسلامية، فكتبوا في علوم القرآن، والحديث، والسيرة، والتفسير، والفقه، والشريعة الإسلامية، والتاريخ الإسلامي، والأدب، واللغة العربية، والشعر العربي، والنقد الأدبي، والتراجم والرجال، وعلم الكلام، والفسفة الإسلامية، ولكن كتابتهم لهذه العلوم كانت بهدف رسم صورة ذهنية للقاريء والمثقف الأوربي الذي يريدون تحصينه وحمايته من التأثر بالفكر والحضارة والثقافة الإسلامية.

لقد أثرت الأهداف السابقة في إضعاف هوية الثقافية العربية من خلال الشبهات التي أثاروها، والطعون التي نشروها، والمعلومات الخاطئة التي روجوا لها، والصورة المشوهة عن العلوم الإسلامية التي تناولوها بالدراسة والتحليل والنقد، وكما ذكرنا، لم يتركوا علما من العلوم الإسلامية إلا ودرسوه وألفوا فيه وأثاروا حوله الشبهات والطعون، لكن تأثيرهم في الأمور السابقة يهون مقابل الأثر الذي تركوه للاستعمار، والأثر الذي تركوه في التعليم في جامعات البلدان العربية، فمن الثابت أن الاستشراق كان ممهدا للاستعمار، وقد ساهم الاستعمار بصورة جلية في ضعف الهوية الثقافية العربية وتفتيتها، كما كان الأثر الذي تركه المستشرقون في عقول طلابنا في الجامعات العربية خطيرا، فقد آمن العديد من طلاب الجامعات العربية بالمعلومات المغلوطة التي درسها لهم المستشرقون في الجامعات إيمانا تاما، خاصة وأن معلوماتهم كانت تقدم على أنها حقائق لا تقبل الشك، وقد أصبح طلاب الأمس أساتذة الغد، وبثوا هذه المعلومات لطلابهم وقاموا بالدور الذي كان المستشرقون يقومون به معهم، وهو ما سيأتي الحديث عنه بالتفصيل بعد ذلك.

وقبل أن نختم حديثنا عن الاستشراق، قد يتسرع قائل ويقول: لماذا نقدم جانب الصورة المشوهة عن المستشرقين؟ ولماذا الإفراط في الحديث عن السلبيات التي قدموها؟ وكما ذكرت الجوانب السلبية للاستشراق لماذا لم نعرض للجوانب الإيجابية لهم؟ وهنا نقول بأن هناك العديد من المؤلفات التي ألفها العرب عن بعض إيجابيات المستشرقين، ومن أراد أن يطالع هذه المؤلفات فهي منشورة ومثبوتة ومشهورة، وقد اتصف المؤلفون العرب – وهذا من أخلاق الإسلام الرفيعة – في حديثهم عن المستشرقين بالإنصاف الذي لم يتحلى كثير من المستشرقين بالحد الأدنى منه في حديثهم عن علوم المسلمين، ولا عجب من ذلك، فمن طالع أهدافهم بدقة ووعي أدرك أنهم لم يدرسوا علوم الإسلام لإنصافها، فأهدافهم وغاياتهم أبعد ما تكون عن ذلك، ومن أنصف علوم المسلمين منهم فقد أنصفها لشدة تأثير علوم الإسلام وحضارته في نفسه وفي نضهة أوربا في العصر الحديث.

وبناء على ذلك، فقد كان حديثي عن الاستشراق من الزاوية التي أعنى بها في دراستي، وهي تأثير الاستشراق وأثره في ضعف الهوية الثقافية العربية، وقد كان الاستشراق في هذه المرحلة الزمنية من أول وأبرز العوامل التي أثرت في ضعف هويتنا الثقافية، ولو لم يكن له من أثر إلا أنه مهد لاستعمار الدول العربية والإسلامية لكفاه، ولو لم يكن له من أثر إلا تشويه الثقافة وعلوم المسلمين في عقول طلابنا في الجامعات آنذاك لكفاه.

وقد يقول قائل كذلك، ألا يدل الهجوم على الاستشراق والحديث عنه بهذه الصورة إلى الدعوة إلى التقوقع داخل الذات وعدم الانفتاح على الثقافات المغايرة وحوار الحضارات؟ وهنا نقول بأن قضية الانفتاح على الثقافات المغايرة لها وقفة معنا في حديثنا عن آثار هذه المرحلة على القضايا الأدبية والنقدية، أما قضية حوار الحضارات، فنقول بأن حوار الحضارات كان يؤخذ من جانب واحد، وهو الجانب المتعلق بإلزام المثقفين والمفكرين العرب بعدم الرد على مطاعن الاستشراق

والغرب في علوم المسلمين، فحينما يتصدى عالم لرد المطاعن والافتراءات يهاجم بأنه معارض لحوار والحضارات ولا يتمتع بالحد الأدني من الحوار الثقافي والفكري، وذلك حتى لا تقوم للثقافة العربية قائمة، وحتى تكون تابعة وسائرة في ظل الثقافة الغربية، وهذه شعارات موجهة يجب أن نتنبه لها ونحذر منها.

ب – الاستعمار.

كان الاستعمار الأوربي للبلدان العربية والإسلامية هو العامل الثاني الذي ساعد على ضعف هوية الثقافة العربية في هذه المرحلة، وتكمن قيمة الحديث عنه باعتباره العامل الأبرز الذي كشف الصراع الكامن على الهوية الثقافية، فجميع المراحل السابقة كان الصراع على الهوية الثقافية صراعا هادئا وساكنا من طرف واحد، فقد كان الأوربيون يتأهبون لمعركة مع المسلمين يدركون أنها قادمة، وهم يتجهزون لها بالعلم والمعرفة والثقافة، ولم يظهروا للمسلمين أي عداء أو صراع مباشر، بل كانوا يتقربون منهم ويقيمون بين ظهورهم بكل لطف وود ومحبة مكنتهم من أخذ كل ما لديهم، لكن في مرحلة الاستعمار برز هذا الصراع الخفي، وما كان خافيا أصبح ظاهرا، وبدأت أولى المواجهات بين علماء المسلمين والمستشرقين وأتباعهم من رجال وقادة الاستعمار.

لقد ذكرت سابقا أن المخطوطات والمدونات والملاحظات التي قام المستشرقون بجمعها وإعدادها أثناء جلوسهم في ديار الإسلام كانت ترسل إلى القادة العسكريين في أوربا حتى يستفيدوا منها في كيفية استعمار البلدان الإسلامية ومعرفة الطرق التي يدخلون بها إلى كل بلد إسلامي، وحتى نقف على هذا الترابط والتداخل بين الاستشراق والاستعمار يمكننا النظر إلى خريطة تطورهما ونموهما معا، وحينها سنجد أنفسنا أمام "خريطتان متطابقتان تقريبا، هما، خريطة التوسع الأوربي الاستعماري وخريطة التوسع والتقدم في مؤسسات الاستشراق، الخريطة الأولى اتسعت بين عامي ١٨٦٥ و ١٩١٤م أي في قرن واحد بحيث أصبحت السيطرة الأوربية تغطي حوالي ٨٥% من كوكب الأرض بعد أن كانت

تغطي ٣٥% من هذا الكوكب، والخريطة الثانية اتسعت في الفترة نفسها بحيث جندت لها إمكانيات ضخمة وأدخلت في الاستراتيجيات الرسمية الأوربية"[١]، وسوف أتوقف في الحديث عن الاستعمار على الجانب المتعلق بانعكاس الاستعمار الأوربي وأثره على قضية الهوية الثقافية العربية وحسب.

تعددت الحملات الاستعمارية على بلدان العالم العربي والإسلامي في هذه المرحلة، لكن كان أبرزها وأشدها أثرا فيما يتعلق بقضية الهوية الثقافية، الحملة الفرنسية على مصر التي تمت في عام ١٧٩٨م، واستمع فيها نابليون لآراء المستشرقين وتوجياهتهم المتعلقة بضرورة غزو مصر[٢] باعتبار موقعها الجغرافي، كما أنها من أكبر البلدان الإسلامية التي حافظت على تراث المسلمين مع مدينة الشام آنذاك، كما كان فيها بذورا ليقظة دينية وإسلامية تحاول أن تنهض بالعلوم اللغوية والأدبية والعلمية وتعاود الأمر لما كان عليه المسلمون قبل ذلك، وبفضل هذه الآراء قام بغزوها حتى يئد النهضة واليقظة الدينية والعلمية في مهدها بناء على توجيهات المستشرقين، وحتى لا تصل إليها بريطانيا الدولة المستعمرة الثانية التي كانت تستعمر الهند وقتها، وقد أحضر نابليون معه في هذه الحملة العديد من العلماء في مختلف العلوم والفنون حتى يتمكنوا من السيطرة على مصر وما فيها من علوم ومعارف تحت ستار التنوير والتطوير لمصر وإخراجها من ظلمات الجهل إلى نور العلم.

---

(١) الاستشراق والوعي السالب، تأليف خيري منصور، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص ٢١.

(٢) يوضح الدكتور إدوارد سعيد بالتفصيل الاسباب التي دفعت نابليون إلى غزو مصر، وكيف كان دور المستشرقين في هذه الحرب، بالإضافة إلى العلماء الذين أحضرهم معه لدراسة مصر، وأثر الدراسات التي تركوها، ينظر كتابه الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ص ١٥١ وما بعدها.

مثلت الحملة الفرنسية على مصر أول صدام ملموس في قضية الهوية الثقافية، فمن خلالها تبينت العلاقات الخفية والفعلية بين المستشرقين والقادة العسكريين الأوربين المستعمرين، فهؤلاء المستشرقون المقيمون في البلدان الإسلامية لا يطلبون العلم للعلم، ولكنهم كانوا يطلبونه لهدف استعماري، وقد كان من المفارقات التي تكشفت للمسلمين وقتها، قدوم العديد من المستشرقين المقيمين بين ظهور الإسلام مع قادة الحملة، بالإضافة إلى حالة الترابط الوثيقة التي تمت بين المستشرقين المقيمين في مصر مع قادة الحملة الفرنسية وتقديم النصح والتوجيه والإرشاد لهم، وما كان خافيا بالأمس أصبح ظاهرا مكشوفا بعد دخول الحملة إلى مصر.

حاول الفرنسيون بعد غزوهم لمصر أن يستميلوا العلماء المصريين وعلماء الأزهر لهم، فلو سيطروا على العلماء لسيطروا على الشعب، وذلك لما لهم من مكانة ومنزلة في قلوب المصريين آنذاك، وقد استمالوا العلماء بالعديد من الأساليب والصور، فتارة بالتعذيب والتخويف والقتل حتى تضعف نفوسهم، وتارة بتقريبهم وإدخالهم في المجالس الوزارية والقيادية التي أقاموها، وتارة بالتقرب منهم بالزواج و المصاهرة، وقد جاهد العلماء وخاصة علماء الأزهر ورجاله وقتها جهادا كبيرا لردهم والدفاع عن بلادهم ودينيهم، لكن مع مرور الوقت بدأ بعض العلماء في الميل إلى الفرنسيين والتقرب منهم بدافع حقن الدماء، أو بدافع محاولة الاستفادة مما لديهم من خبرات علمية أملا في تحقيق نهضة علمية مماثلة لما وصلوا إليه، وهنا بدأ أول انقسام وشرخ ثقافي يحدث في قضية الهوية الثقافية، وكان هذا الحدث منشأ الصراع والجدل والحوار الدائر حتى يومنا هذا فيما يتعلق بالموقف من الثقافة المغايرة.

من هذه النقطة بدأت قضايا الهوية الثقافية تخرج للعلن بعدما كان الصراع كامنا وساكنا، وانطلقت أول قضية تتعلق بالهوية الثقافية، الموقف من الثقافة المغايرة، وقد امتدت هذه القضية على جميع العلوم الدينية واللغوية والأدبية

والنقدية، خاصة وأن عناية المستشرقين الأولى توجهت إلى العناية باللغة العربية وآدابها، ومنذ هذه اللحظة بدأت حالة السجال والخلاف بين مفكرينا ونقادنا وعلمائنا لتحديد موقفهم من الثقافة المغايرة، وتم تبادل الاتهامات بالجمود والتصلب والتشدد والتأخر والانغلاق على الذات للطرف الرافض للثقافة الخارجية، بينما اتهم الطرف المنفتح على الثقافة الخارجية بالخيانة والمؤامرة وبيع الثقافة الوطنية، ولو وقفنا على أصل القضية ومنبعها لسهل علينا أن نرحم أنفسنا من هذا الجدل الدائر، وأن لا نتهم بعضنا بالجمود والانغلاق تارة وبالخيانة والمؤامرة تارة أخرى، خاصة وأن الزمن تقادم، وحقق الاستشراق والاستعمار والتبشير أهدافه في الثقافة العربية، وباتت النتائج واضحة لكل مفكر ومثقف عربي، وسوف نقف في فصل لاحق عند هذه القضية بالتفصيل، لكن أحببت أن أشير هنا إلى منبع القضية حتى نتمكن من تحديد موقفنا منها بدقة فيما بعد.

تقاسم الاستعمار بلدان الوطن العربي بينه بعدما تم تفكيكها وتقسيمها، وأخذت كل دولة مستعمرة نصيبها، وقد ساهم هذا التقسيم في ضعف الهوية الثقافية لأنه ساهم في ظهور النزعة الإقليمية في دراسة الأدب والنقد العربي، وهي ردة فعل طبيعية لتقسيم بلدان الوطن العربي، وسوف نقف أمامها في حديثنا عن الآثار الأدبية والنقدية لهذه المرحلة، وإذا كان هذا التأثير جاء بعد مرحلة ممتدة من عملية التقسيم، فقد كان الأثر المباشر للاستعمار الأوربي لبلدان الوطن العربي، ماقام به الاستعمار حينما أرسل المواطنين والتجار والطلاب والعلماء والمثقفين العرب في البلدان التي استعمروها إلى أوربا حتى ينبهروا بحضارتهم الحديثة ويقفوا على تطور العلوم والمعارف في أوربا، شريطة أن يتم إعادتهم بعد فترة إلى ديارهم ليخبروا عموم الناس بضرورة اتباع الدول المستعمِرة والسير على خطاها، وذلك لما شاهدوه وعاينوه من عظمة وتقدم وحضارة ومعرفة في الحياة العامة في هذه البلدان، وبذلك سيكون لكلامهم وقع وأثر أكبر، وهذا ماتم بصورة منهجية ومنظمة في البعثات العلمية.

ج – البعثات العلمية.

كانت بداية هذه الفكرة نابعة من الرسالة التي أرسلها نابليون لكليبر الذي تولى إدارة الحملة في مصر بعدما غادرها نابليون، والتي يقول له فيها "ستظهر السفن الحربية الفرنسية بلا ريب في هذا الشتاء أمام الإسكندرية أو البرلس أو دمياط، يجب أن تبني برجا في البرلس، اجتهد في جمع ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخص من المماليك، حتى متى لاحت السفن الفرنسية تقبض عليهم في القاهرة أو الأرياف وتسفرهم إلى فرنسا، وإذا لم تجد عددا كافيا من المماليك، فاستعض عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدان، فإذا ما وصل هؤلاء إلى فرنسا يحتجزون مدة سنة أو سنتين يشاهدون في أثنائها عظمة الأمة الفرنسية، ويعتادون على تقاليدنا ولغتنا، ولما يعودون إلى مصر، يكون لنا منهم حزب يضم إليه غيرهم"(١).

لكن لم يكن الأمر بعد ذلك بهذه العشوائية في الاختيار، فلم يكن عامة الشعب أو التجار أو مشايخ البلدان و رجال الأرياف من المستهدفين، لقد كانت الفئة المستهدفة بعد ذلك هي العلماء والباحثون، وذلك لما لهم من أثر في المجتمعات العربية والإسلامية، ولأنهم نواة القيادات السياسية والتعليمية في المدارس والجامعات التي ستكون مسؤولة عن إدارة التعليم في البلدان الإسلامية بعد ذلك.

بدأت البعثات العلمية في عهد محمد علي عندما حكم مصر وأقنعه قناصل فرنسا بإرسال البعثات العلمية إلى فرنسا، وكان هناك "في فرنسا رجل كبير ممن شاركوا في الحملة الفرنسية، كان مهندسا بارعا، وكانت له منزلة كبيرة عند نابليون والمستشرق فانتور خليل نابليون ونجيه، وانتخب بعد عودته إلى فرنسا عضوا بالمجمع العلمي الفرنسي، وكان شديد الاهتمام بكل ما يخص مصر، هو المسيور

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف الشيخ محمود محمد شاكر، ص ٢١٠ .

جومار (آدم فرنسوا جومار ١٧٧٧-١٨٦٢م). فلما رأى نجاح القناصل في إغراء محمد علي بإرسال البعثات إلى أوربة ما بين سنة ١٨١١م إلى سنة ١٨١٩م، أسرع جومار يحث الاستشراق الفرنسي وقناصله في مصر على إغراء محمد علي بإرسال بعثات كبيرة إلى فرنسا ليجعلها تحت إشرافه، ولينفذ مشروع نابليون الذي بينه لخليفته كليبر في رسالته إليه"[١].

وسرعان ما استجاب محمد علي وبدأ في إعداد المبتعثين للخارج، وكانت جميع هذه البعثات تحت إشراف جومار، لكنه لم يعتمد على "كبار السن من المماليك ومشايخ البلدان، بل على شباب غض يبقون فرنسا سنوات تطول أو تقصر، يكونون أشد استجابة على اعتياد لغة فرنسا وتقاليدها، فإذا عادوا إلى مصر كانوا حزبا لفرنسا، وعلى مر الأيام يكبرون ويتولون المناصب صغيرها وكبيرها، ويكون أثرهم أشد تأثيرا في بناء جماهير كثيرة تبث الأفكار التي يتلقونها في صميم شعب دار الإسلام في مصر، هكذا طور جومار مشروع نابليون الذي لم يستطع كليبر أن يحققه وهلك دون ذلك"[٢].

كان هؤلاء الشباب في مقتبل أعمارهم، "وليس في عقولهم ولا قلوبهم إلا القليل الذي لا يغني من الثقافة المتكاملة التي عاشت فيها أمتهم قرونا متطاولة، ووضعهم جومار تحت أيدي المستشرقين يوجهونهم من حيث لا يشعرون إلى الجهة التي يريدونها، ويعطونهم القدر اليسير المتفق عليه بينهم من العلوم التي يدرسونها، ثم يردونهم بعد سنوات قلائل إلى مصر ... يتولون المناصب والأعمال، وهذا شيء غريب أن يكون هؤلاء الشبان قد حازوا في سنوات قلائل من العلوم والفنون التي شابت نواصي العلماء في سبيلها، ما يؤهلهم للتدريس

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف الشيخ محمود محمد شاكر، ص ٢١٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٢١١.

والصناعات والأعمال وجلائل الأمور، شيء غريب جدا!! وهم قبل سفرهم لم يحصلوا من هذه العلوم والفنون الجديدة شيئا يذكر، أليس هذه الدعوى غريبة كل الغرابة؟"(١).

بدأت البعثات العلمية في عهد محمد علي وكان أولها في عام ١٨١١م، بإجمالي عدد إحدى عشر بعثة، وتوالت البعثات في متخلف التخصصات العلمية بعد عهده، وكان الاهتمام بها من قبل الأوربيين بالغا حتى تخدم أهدافهم، وقد حققت هذه البعثات أثرها حينما بدأ الشباب العائدون من بعثاتهم العلمية في نشر الأفكار والعلوم التي تعلموها في الخارج في المجتمعات والجامعات والمدارس العربية والإسلامية التي درسوا للطلاب فيها، لقد نشروا أفكارهم تحت ستار التنوير والتجديد النابع من مناهج البحث العلمي التي تعلموها في أوربا، وكانوا يرون – وفقا لما تعلموه – أن المناهج التي تربوا عليها في أوربا لا تقبل الشك أو الجدال نظرا لمنهجيتها العلمية التي تسير عليها.

وحتى نقف على تأثير هذه البعثات في ضعف الهوية الثقافية العربية، سنقف على نموذج – على سبيل المثال لا الحصر – مع الموقف الذي حدث مع الدكتور مصطفى السباعي حينما كان طالبا في الفرقة الثانية والثالثة الجامعية ودرس له الدكتورعلي حسن عبد القادر مادة تاريخ التشريع الإسلامي، وكان ذلك بعد عودته من بعثة علمية في ألمانيا حصل فيها على درجة الدكتوراة بعد أربع سنوات، وقد بين الدكتور مصطفى سباعي أن الدكتور حسن عبدا لقادر بدأ كلامه لهم بقوله "إني سأدرس لكم تاريخ التشريع الإسلامي، ولكن على طريقة علمية لا عهد للأزهرية بها، وإني أعترف لكم بأني تعلمت في الأزهر قرابة أربعة عشر عاما

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف الشيخ محمود محمد شاكر ، ص ٢١٢.

فلم أفهم الإسلام، ولكني فهمت الإسلام حين دراستي في ألمانيا"[1]، وبعدما طرح الدكتور حسن عبد القادر موضوعاته العلمية التي كانت مليئة بالمغالطات الفكرية والبحثية، اختلف معه الدكتور مصطفى السباعي الذي كان طالبا في الكلية آنذاك، وقد بين الدكتور مصطفى السباعي أن الدكتور حسن عبد القادر عاد عما قاله من مغالطات فكرية وعلمية غرسها المستشرقون في عقله في فترة دراسته بألمانيا، وهذا ما بينه الدكتور مصطفى السباعي في بقية حديثه عن هذه الحادثة، وأرجو أن تعود إليها في موطنها[2] لأنها تبرز خطورة الشرخ الثقافي الذي أصبنا به نتيجة البعثات العلمية.

لكن، أليس ما طرحه الدكتور حسن عبد القادر يتطابق تماما مع ما طرحه الدكتور طه حسين في قضيته المشهورة المتعلقة بانتحال الشعر الجاهلي، فكلاهما قال لطلابه أنه ينطلق من منهجيات علمية وبحثية لم يكن لنا بها عهد في مصر، وكلاهما عرض أفكاره وآراءه المغلوطة بكل ثقة كأنها مسلمات علمية لا تقبل الشك أو الجدل، وكلاهما نقل هذه الأفكار المغلوطة لطلاب الجامعات العربية والإسلامية بعد تلقينهم لهذه الأفكار من قبل المستشرقين.

لكن المفارقة الحقيقية التي يجب التوقف عندها في الحقيقة، أن الدكتور حسن عبد القادر درس على يد المستشرقين الألمان، أما الدكتور طه حسين فقد درس على المستشرقين الفرنسيين، كما أن مادة التخصص مختلفة، فالدكتور حسين عبد القادر كان يدرس مادة تاريخ التشريع، والدكتور طه حسين كان يدرس تاريخ الأدب العربي، وهنا تكمن خطورة الأمر، فمع اختلاف بلد الدراسة، واختلاف مادة التخصص، إلا أن الأفكار المبثوثة كانت واحدة، والثقة في نتائج هذه الأفكار

(١) المستشرقون مالهم وماعليهم، الدكتور مصطفى السباعي، دار الوراق، الطبعة الأولى، ص١٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١١.

كانت واحدة، وهذا يوقفنا على خطورة الأمر، فالاستشراق كان يغذي هذه الأفكار للباحثين العرب والمسلمين في بعثاتهم العلمية بغض النظر عن مكان دراستهم، ومواد تخصصهم، كأنها أفكار سعى الاستشراق الأوربي إلى غرسها وفق آليات ومنهجيات يتبعونها مع الباحثين المبتعثين، بحيث يشككونهم في ثوابت الدين والعقيدة واللغة والأدب حتى ينشروها في مجتمعاتهم العربية والإسلامية بعد عودتهم وتوليهم زمام الأمور السياسية والإدارية والتعليمية، ومن هنا نقف على أثر هذه البعثات العلمية في ضعف الهوية الثقافية العربية والإسلامية وتوجيهها في الاتجاه الذي يريده المستشرقون والقادة الأوربيون.

لقد حققت البعثات العلمية هدفها، وأصبح هناك فئة من علماء العرب تنطق وتعبر عن الأفكار المغلوطة التي يريد المستشرقون نشرها بين أبناء العربية، خاصة وأن المستشرقين اهتموا بابتعاث الطلاب المتخصصين في علوم القرآن، والحديث، والفقه الإسلامي، وتاريخ التشريع، وعلوم البلاغة العربية، والأدب العربي، والنقد الأدبي، وهذه علوم قام عليها الدين الإسلامي، وقامت عليها ثقافة المسلمين وحضارتهم، والواجب أن تؤخذ هذه العلوم من المسلمين ممن أتقنوا اللغة العربية وتمكنوا فيها(١)، لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى استقدام المستشرقين لتدريس هذه العلوم وعلوم اللغة العربية لطلابنا في الجامعات العربية والإسلامية.

د- افتتاح المدارس والجامعات في البلدان العربية.

استمرت البعثات العلمية في عهد محمد علي وتابعها من بعده أبناءه، لكن الأمور تطورت وبدأ التفكير في إنشاء مدارس تعليمية في البلدان العربية يقوم على

(١) ينظر بالتفصيل كتاب: الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، الدكتور محمد عبد المتعال محمد، ص ٢١١.

رعايتها وإدارتها طلاب البعثات العلمية الذين كانوا في أوربا، وكان افتتاح هذه المدارس تحت إشراف ورعاية المستشرقين والدول الأوربية، وكانت أول مدرسة تم إنشاؤها هي مدرسة الألسن التي تم إنشاؤها في عام ١٨٣٦م، وكانت المدرسة وقتها تشبه كلية الآداب في عصرنا الحالي، حيث كانت تدرس اللغة العربية وآدابها واللغات الأجنبية خاصة اللغة الفرنسية والتركية والفارسية، ثم الإيطالية والإنجليزية، بالإضافة إلى علوم التاريخ والجغرافيا والشريعة الإسلامية والشرائع الأجنبية.

قامت مدرسة الألسن وعظم دورها في المجتمع، لكنها بدأت تصطدم بالتعليم الأزهري الذي كان مسيطرا على العملية التعليمية في مصر آنذاك، "وانشطر تعليم الأمة شطرين، ونمت هذه المدارس وتكاثرت، يدخلها أبناء الموسرين والمستورين، وجعلت الهوة بين الأزهر والمدارس تتسع، وأصبحت المناهج تتباين تباينا شديدا، أما مناهج الأزهر في عزلته فجعلت تضعف وتذوي وهي على بنائها القديم، وأما مناهج المدارس فجعلت تنمو ولكن نموها قائم على القشور التي تغر ولاتغني فتيلا، وجعلت تزداد تباعدا مقطوع الأواصر من الثقافة المتكاملة التي عاشت بها الأمة قرونا متطاولة"(١)، وقد أدى هذا الأمر إلى زعزعة مكانة الأزهر خاصة مع وجود البديل التعليمي الذي تمثَّل في هذه المدراس الموجَّهَة من المستشرقين والمعادية للأزهر وعلماءه ومناهجه التعليمية التي تنهض وتؤسس على الاهتمام بعلوم المسلمين وتراثهم.

لكن بدأ مسار التعليم يختلف بدأ من قدوم الاحتلال الإنجليزي إلى مصر، وكان أول ما فعله بعدما رسخ أقدامه في مصر أن وجه أنظاره نحو التعليم، وبدأ في صراع مع الاستشراق الفرنسي وألغى جميع ما فعله الاستشراق الفرنسي من

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف الشيخ محمود محمد شاكر، ص ٢٢٠.

مدارس، وعهد بعدها بأمر التعليم إلى قسيس إنجليزي من المستشرقين هو المستر دنلوب، "ووضع دنلوب أسس التفريغ الكامل لطلبة المدارس المصرية، أي تفريغ الطلبة من ماضيها المتدفق في دمائها مرتبطا بالعربية والإسلام، ومهد إلى ملئه بماض آخر بائد في القدم والغموض، لم يبق من ثقافته شيء البتة"(١)، وهذا الماضي الذي وضعه دانلوب لهم هو ماضي الحضارة الفرعونية كبديل عن الحضارة الإسلامية، وهذا ما أدى إلى وقوع أبناء المسلمين وطلاب المدارس في حالة من الفراغ الثقافي من ماضي الحضارة الإسلامية وعلومها، حتى وإن حصَّلوا منها شيئا، فهو شيء يسير لا يؤسس لفكر معرفي متكامل، ولا يربط هذا الطالب بماضيه وحضارته وما فيها من كنوز علمية ومعرفية نهضت عليها الأمة الإسلامية وامتدت عليها حضارتها لقرون متتالية.

وبعيدا عن حالة الصراع التي بدأت بين الاستشراق الفرنسي والاستشراق الإنجليزي في هذه المرحلة نتيجة لاحتلال مصر من قبل الإنجليز، فهناك أمر في غاية الأهمية يجب التوقف عنده فيما يتعلق بالدور الذي لعبته جماعة التبشير في العملية الثقافية التعليمية، وإذا كان التبشير هو الضلع الثالث للاستشراق والاستعمار، وإذا كان الاستشراق والتبشير قاما على إضعاف الثقافة العربية وزعزعتها ومحاولة فصل المسلمين عن ماضيهم وحضارتهم، إلا أن الفرق بينهما كان كبيرا في طريقة العمل، فالاستشراق قد استولى على المطابع ودور النشر والصحافة، وأخذ "صورة البحث، وادعى لبحثه الطابع العلمي الأكاديمي، بينما بقيت دعوة التبشير في حدود مظاهر العقلية العامة، وهي العقلية الشعبية، استخدم الاستشراق الكتب والمقال في المجالات العلمية وكرسي التدريس في الجامعة، والمناقشة في المؤتمرات العلمية العامة، أما التبشير فقد سلك طريق التعليم

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف الشيخ محمود محمد شاكر ، ص ٢٢٣.

المدرسي في دور الحضانة ورياض الأطفال والمراحل الابتدائية والثانوية للبنين والبنات على حد سواء، كما سلك سبيل العمل الخيري الظاهر في المشافي ودور الضيافة والملاجيء لكبار السن ودور اليتامى"[١]، وبهذا التكامل بين الاستشراق والتبشير تم الإطباق على جميع أمور التعليم في البلدان العربية والإسلامية.

وإذا حاولنا أن ننظر إلى أثر هذه المدارس في زعزعة الهوية الثقافية العربية وتأثيرها، فيمكننا النظر إلى مناهجها التعليمية التي تم تدريسها، فلم تكن مناهج هذه "المدارس نابعة من الثقافة المتكاملة التي تجدد نفسها تجديدا يزيدها قوة ووضوحا، بل كانت غراسا غريبا يزيدها بعدا وانقطاعا عن أصول الثقافة المتكاملة لدار الإسلام في مصر، ولا تكسبها قوة ووضوحا، بل تكسب أبناءها تنكرا وإعراضا واحتقارا أيضا لتلك الثقافة المتكاملة التي عاشت بها أمتهم، وكذلك صار أبناؤها حزبا جديدا ميله وحبه وإكباره للمصدر الذي عنه ما تعلموه ولم يتعلموا غيره، كما أراد نابليون بمشروعه الذي عهد به إلى خليفته كليبر وطوره تطويرا كبيرا المسيو جومار"[٢]، وبهذا نقف على أثر هذا العنصر ودوره في ضعف هويتنا الثقافية.

ذ – استقدام المستشرقين للتدريس في الجامعات.

واكب التطور في فتح المدارس والجامعات خطوة أخرى بالغة الأهمية، وهذه الخطوة هي الخطوة المتعلقة باستقدام المستشرقين للتدريس وإلقاء المحاضرات العلمية في الجامعات المصرية، وقد كان بداية استقدامهم للتدريس عندما أنشئت مدرسة الألسن "فكان هؤلاء الدهاة من صنائع الاستشراق هم الذين تولوا تثقيف ١٥٠ تلميذا كان رفاعة الطهطاوي يختارهم صغارا من مدارس الأرياف والأقاليم ومن طلبة الأزهر"[٣]، وقد تولوا تدريس هؤلاء الطلاب، وكانت هذه بدايات

(١) الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، الدكتور محمد عبد المتعال محمد الجبري، ص ١٣٥.
(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف الشيخ محمود محمد شاكر، ص ٢٢١.
(٣) المرجع السابق، ص ٢١٨.

استقدامهم للتعليم في مدارسنا وجامعاتنا.

لكن الأمر تطور بعد ذلك، خاصة في المرحلة الجامعية، وحاضر المستشرقون في مختلف العلوم والفنون العربية والإسلامية، فحاضروا في علوم الفقه والتفسير والحديث وعلم الرجال والتاريخ الإسلامي والشريعة والفلسفة وعلم الكلام وغيرها وغيرها من العلوم الدينية الأخرى، كما حاضروا في اللغة العربية وتاريخها وبلاغتها وأدبها وشعرها ونثرها ونقدها، وعقدوا موازنات بين الآداب العربية والآداب الأجنبية الخاصة بهم، فضلا عن قيامهم بتحقيق العديد من المخطوطات العلمية الخاصة بالعلوم الإسلامية في التراث الديني واللغوي، وقد أفسحت لهم الجامعات العربية مكانا كبيرا، وكان لهم دور كبير في توجيه الثقافة والفكر العربي في هذه المرحلة، كما كان لكلامهم وآرائهم العلمية تأثير في الأوساط الأكاديمية والعلمية، خاصة في الأساتذة والطلاب الذين عادوا من بعثاتهم العلمية التي تحدثنا عنها قبل ذلك، لكن أكبر أثر تركوه، كان في طلاب الجامعة الذين استقبلوا كلامهم كأنه حقائق علمية لا تقبل الشك، وذلك نظرا للحفاوة التي قوبلوا بها، ونظرا لطريقتهم وأسلوبهم المتبع في عرض موضوعاتهم العلمية وهي الطريقة التي أثروا بها على طلاب البعثات العلمية من قبل.

لكن نلاحظ هنا منعطفا خطيرا يجب التوقف عنده فيما يتعلق بضعف الهوية الثقافية العربية، لقد تسلل المستشرقون إلينا بصورة عجيبة وماكرة، حتى أصبحنا نحن العرب من يفتح لهم أبواب الجامعات والمدارس وقاعات المحاضرات ودور النشر والصحف والمجلات ليحاضرونا ويكتبوا لنا في تراثنا وعقيدتنا وآدابنا وعلومنا اللغوية التي كان لنا سبق الريادة والمعرفة فيها، وأصبح لهم بهذه الصورة مكانة لا تقل في أهميتها ومنزلتها عن أبناء العربية وعلمائها، بل أصبحوا في مكانة ومرتبة علمية تعلوا على مرتبة علماء المسلمين ومكانتهم، فلم يعد لعلماء الأزهر ذات المكانة التي كانت تؤثر في عموم الشعب وتوجهه، بل همش دورهم نتيجة للهجوم والصدام المتعدد معهم من قبل رجال الاستعمار ورجال الدولة، ولم يعد

لعلوم الأزهر التراثية ذات المكانة والمنزلة التي كانت عليها، بل أصبحت مناهج المدارس والجامعات الجديدة التي وضعها المستشرقون وأتباعهم من العائدين من البعثات العلمية هي المناهج المعترف بها في المدارس والجامعات، باعتبارها علوما تواكب مستجدات العصر الحديث نتيجة لانفتاحها على العلوم الأوربية والحضارات المغايرة، أما مناهج الأزهر فقد أشيع عنها أنها خير مثال على الجمود والتخلف والرجعية والتأخر.

وبعيدا عن علماء الأزهر، أين علماء الجامعات المصرية الذين برزوا وكان لهم سبق في العلوم والمعارف في هذه المرحلة؟ لقد تبدل الحال بهم أيضا، وتبدلت معايير العلم والمعرفة الخاصة بهم، وأصبح الحصول على منحة علمية لدراسة الماجستير أو الدكتوراة في أوربا شرطا من معايير التقدم والأهلية والشهرة والنبوغ في الوطن العربي، ومن هنا جاء الخلل، وتبدل الحال، وانقلبت المعايير، وبدلا من قيام علماء المسلمين بواجبهم في التعليم والتدريس انطلاقا من الثوابت الفكرية التي ترتبط بالعقيدة واللغة والهوية الثقافية العربية، جاء المستشرقون إلى جامعاتنا ليحاضرونا ويعلمونا علوم ديننا ولغتنا وثقافتنا، وأصبحوا مقدمين في قاعاتنا التدريسية وصحفنا ومجلاتنا، وأصبح الحصول على منحة من الغرب شرطا من شروط التقدم والمعرفة لدينا.

غير أن المتابع للأمر يرى أنه جاء على مراحل متعددة، بدأت بتسلل المستشرقين إلى بلاد العرب لدراسة علومنا، ثم مجيء رجال الاستعمار بناء على توجيهات رجال الاستشراق، ثم بتأثير رجال الاستشراق والاستعمار على قادة الوطن العربي وإقناعهم بإرسال بعثات علمية لأوربا لتحصيل العلوم والمعارف، وتبعها تلقين المبتعثين ما يريد الغرب بثه في الجانب الفكري والثقافي للأمة العربية والإسلامية، ثم إرسال المبتعثين إلى أوطانهم لينشروا الأفكار التي تربوا عليها في بعثاتهم العلمية، والقيام بدورهم في فتح المدارس والجامعات، وأخيرا التمهيد للمستشرقين بالحضور إلى الجامعات المصرية وتقديمهم على أنهم أصحاب

الحضارة والتقدم، وأن حضارتنا وتقدمنا مرهون بالاستماع إليهم والسير على خطاهم، وبمثل هذه الجهود الحثيثة الصابرة من قبل الأوربيين وصل الحال بنا إلى ما نحن فيه الآن من تيه فكري وثقافي لم نصل إليه في مرحلة سابقة من تاريخنا.

المبحث الثاني: أثر الهوية الثقافية وانعكاسها على الحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة

أسهمت الأحداث التي مرت بها هذه المرحلة في ضعف الهوية الثقافية العربية بصورة ملحوظة، وهذا ما انعكس على الحياة الأدبية والنقدية بصورة جذرية اختلفت عن المرحلة الأولى اختلافا تاما، ففي المرحلة الأولى كانت الثقافة العربية والأمة الإسلامية صامدة وقوية رغم الأحداث والصراعات التي مرت بها، ولذلك كان أقصى أهداف الأوربيين في المرحلة الأولى أن يحققوا نهضة علمية توازي النهضة التي وصل إليها المسلمون، ونتيجة لذلك لم يكن هناك تأثير كبير على هوية الثقافة العربية، وكان الأدباء والنقاد يتخذون من الثقافة والتراث العربي مرجعية فكرية، وكانوا يفتخرون بذلك، كذلك كان الأدباء والنقاد الأعاجم يفتخرون بانتسابهم للثقافة والتراث العربي، أما في هذا المرحلة فقد تجاوز الأوربيون المسلمون وتغلبوا عليهم نتيجة لجهودهم المنظمة والحثيثة، وبدأنا نرى ضعفا ملموسا في الهوية الثقافية العربية، وكان هذا الضعف متوافقا مع الجهود الحثيثة والمنظمة التي بذلها الأوربيون، وقد ظهر هذا الضعف أول ما ظهر في الحياة الأدبية والنقدية، باعتبارها خير معبر عن توجه الثقافة والهوية لأي أمة من الأمم.

تعددت القضايا الأدبية والنقدية التي تأثرت بضعف الهوية الثقافية العربية وتأثرها بالأحداث التي تمت في هذه المرحلة الزمنية، وقد جاءت هذه القضايا على النحو الآتي:

أ- الموقف من الثقافة الوافدة.

كانت أول قضية أدبية ونقدية نشأت وأثير الحديث حولها نتيجة ضعف الهوية الثقافية العربية آنذاك، قضية الموقف من الثقافة الوافدة، لقد كان الأدباء

والنقاد في المرحلة الأولى يتخذون من الثقافة والتراث العربي مرجعية فكرية حفاظا على هويتهم الثقافية، وكانوا يعرفون مقدار انفتاحهم وتلاقحهم مع الثقافات الوافدة بصورة لا جلاء فيها، أما في هذه المرحلة فقد بدأ الوضع يتبدل وبدأ هناك نقاش أدبي ونقدي مختلف حول هذه القضية، وقد مر الحديث عن هذه القضية بمرحلتين، المرحلة الأولى سنقف أمامها في هذا المبحث، وهذه المرحلة تقف عند نهاية النصف الأول من القرن العشرين، أما المرحلة الثانية فقد بدأت في بدايات النصف الثاني من القرن العشرين، وسوف نقف أمامها بالتفصيل في الفصل الثالث باعتبارها نتيجة من نتائج الأحداث التي مرت بها المرحلة الثالثة.

أثارت هذه القضية حوارا أدبيا ونقديا كبيرا في هذه المرحلة الزمنية، وحتى نقف على تأثيرها على المستوى الأدبي أولا، لا بد لنا أن نلقي نظرة على المدارس التي سيطرت على الساحة الأدبية في الوطن العربي في القرن التاسع عشر حتى النصف الأول من القرن العشرين، لقد كان أول هذه المدارس مدرسة البعث والإحياء، وقد حاولت هذه المدرسة أن تعيد الشعر العربي إلى عصور ازدهاه العربية الأولى، ولذلك حاكت هذه المدرسة تراث العربية الشعري ونسجت الشعر على منواله، دون أن يكون منطلقها الفني محاكاة الثقافات العالمية الأخرى، بل كان تأثرها بتراث العربية تأثرا خالصا وكاملا، أما المدارس الأدبية التي رافقتها وتلتها فهي مدرسة شعراء المهجر، ومدرسة الديوان، ومدرسة أبو للو، ومدرسة الشعر الحر، وقد كانت هذه المدارس منطلقة في رؤاها الفنية من التأثر بتراث العربية، مع التأثر بالثقافات والمدارس الشعرية العالمية المغايرة لثقافتنا، وذلك مع تفاوت في مقدار وحجم التأثر بالثقافات الوافدة في كل مدرسة من هذه المدارس، وقد تنوع تأثير المدارس السابقة بالثقافات العالمية ما بين التأثر بالمدارس الأدبية الفرنسية، والإنجليزية، والأمريكية.

لقد دار العديد من النقاشات والحوارت والمعارك الأدبية الحادة بين أدباء هذه المدارس الأدبية، خاصة بين مدرسة البعث والإحياء ومدرسة الديوان، باعتبار

مدرسة الديوان من أولى المدارس الأدبية التي تأثرت بالثقافة الوافدة ودعت إلى ضرورة الانفتاح عليها ومحاكاتها، كما دعت إلى ضرورة تجديد الشعر العربي وبعثه وفق الضوابط الفنية التي وجدت في الشعر الغربي، وكان من أكبر مآخذها على مدرسة البعث والإحياء أنهم يحاكون تراث العربية الشعري ولا يجددون في ألفاظهم ومعانيهم ومضمونهم وخيالهم وفق التجديدات التي وجدت في المدارس الأدبية الغربية التي حاكتها مدرسة الديوان، ومن يطالع حجم الخلافات والمعارك النقدية لنقاد مدرسة الديوان يقف على حجم التأثير الذي أصبنا به في هويتنا الثقافية في هذه المرحلة الزمنية، ويقف على حجم التبدل في الموقف من الثقافة الوافدة وضوابط التفاعل والتلاقح معها، وإذا كان الخلاف الذي حدث بين مشايخ الأزهر وعلماء الأمة حول الموقف من الثقافة الوافدة ومن الحوار مع المحتل والحملة الفرنسية وقتها كان خلافا سياسيا، فقد ترجم هذا الخلاف الآن في القضايا الأدبية بصورة فعلية وواقعية، فقد ولد جيل من الأدباء تعلم اللغات الأجنبية ودرس في البعثات العلمية في الغرب، ودرس على أيدي المستشرقين في الغرب وفي الجامعات العربية، ونتيجة للتشكيل الفكري والثقافي للجيل الجديد، بدأ يدعوا إلى ضرورة الأخذ والتوجه إلى المدارس الأدبية الوافدة، وبدأ يجدد الشعر العربي بصورة فعلية ويطوره وفق الأسس الفنية للمدارس الأدبية الوافدة.

ومن هذا المنطلق، فقد كثر الحوار والجدل والنقاش حول الموقف من الثقافة الوافدة في هذه المرحلة الزمنية على المستوى الأدبي، وشهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى نهايات النصف الأول من القرن العشرين نقاشا ممتدا وحادا بين أدباء مدرسة البعث والإحياء وغيرهم من المدارس الأدبية الأخرى حول هذه القضية.

أما على المستوى النقدي، فالنقد الأدبي يعكس تطور الحياة الأدبية، وكما شهد الوطن العربي نقاشا ممتدا وحادا على المستوى الأدبي حول الموقف من الثقافة الوافدة نشأ الحوار نفسه على المستوى النقدي، ووجد لدينا توجهان من

النقاد، التوجه الأول، التوجه الذي رفض الانفتاح على الثقافة الوافدة بدون ضوابط أو قيود، وبدأ يحذر بقوة من مخاطر هذا التوجه، وكان دافعه لاتخاذ هذا الموقف ما وقف عليه من خطورة فعلية هددت ثقافة الأمة وهويتها وتراثها نتيجة لهجمات الاستشراق والتبشير والاستعمار، بالإضافة إلى الخطوات التي قامت بها الدول الأوربية في الجانب التعليمي في البعثات العلمية، وفي افتتاح المدارس والجامعات التي تخدم أهداف الدول الأروبية، وكان من بين هؤلاء النقاد على سبيل المثال، الشيخ محمود شاكر، والدكتور محمد محمد حسين، والأستاذ أنور الجندي.

أما الفريق الثاني فقد نادى بضرورة الانفتاح على الثقافات الغربية الوافدة، وضرورة الاستفادة من الدراسات الأدبية والنقدية ومناهج البحث والتفكير التي توصلوا إليها، ومن هؤلاء النقاد على سبيل المثال الدكتور أحمد ضيف، والدكتور طه حسين، والدكتور محمد مندور.

ب- الموقف من التراث.

كانت هذه القضية هي القضية الثانية التي تأثرت بضعف الهوية الثقافية في هذه المرحلة الزمنية، وإذا كان هناك تحول في موقف الأدباء والنقاد من الانفتاح على الثقافات الوافدة، فمن الطبيعي أن يكون هناك نقاش وحوار حول الموقف من التراث الأدبي والنقدي.

كان هناك اتجاهان في هذه المرحلة الزمنية حول الموقف من التراث، الموقف الأول، الموقف المحافظ المنادي بضرورة اتخاذ التراث العربي مرجعية فكرية للأدباء والنقاد العرب حفاظا على الهوية الثقافية من الذوبان في الثقافات الأخرى، وقد أخذ الأدباء والنقاد الذين تبنوا هذا الاتجاه على عاتقهم مهمة تحقيق العديد من المخطوطات التراثية، والاهتمام بشرحها وتفسيرها والتعليق عليها في محاولة منهم لتنبيه الأذهان إلى قيمته وأثره في الحفاظ على هوية الأمة، بالإضافة إلى التدليل على قدرته على موائمة ومواكبة متطلباتنا الأدبية والنقدية، وقد بين هؤلاء النقاد أن أي نهضة تتطلع الأمة إلى تحقيقها في الحياة الأدبية والنقدية لا بد

لها أن تمر من بوابة التراث باعتباره خير معبر عن هوية الأمة وثقافتها، وأصحاب هذا الاتجاه هم الأدباء والنقاد الذين تبنوا الموقف الأول المحافظ فيما يتعلق بالتفاعل والانفتاح على الثقافات الوافدة، وممن مثل هذا الاتجاه على سبيل المثال الشيخ محمد علي النجار، والدكتور محمد البهي، والشيخ محمود شاكر، والأديب مصطفى صادق الرافعي.

أما الفريق الثاني، فقد نادى بالجمع والمزاوجة بين التراث وبين الثقافة الوافدة، كما نادوا بإعادة قراءة التراث وتنقيحه بما يتوافق مع مستجداتنا وواقعنا الأدبي والنقدي، غير أن جهودا كبيرة من جهود هؤلاء النقاد انصرفت إلى الاهتمام بالثقافة الوافدة ومحاولة الحديث عن محاسنها وآثارها الأدبية والنقدية، بالإضافة إلى محاولة تطبيق مناهجها على الواقع الأدبي والنقدي في الحياة العربية، وه ما قام به العديد من النقاد أمثال الدكتور طه حسين ومحمد مندور والعقاد وزكي نجيب محمود وغيرهم العديد من كبار الأدباء والنقاد في هذه المرحلة الزمنية.

وهنا أمر يجب أن نشير إليه في هذه النقطة، وهذا من باب الأمانة العلمية التي تحتم علينا الإنصاف في هذه القضية، وهي أن الأدباء والنقاد العرب الذين تبنوا وجهة النظر هذه، كانوا يختلفون في مقدار وضوابط التأثر والانفتاح على الثقافات الوافدة؛ ولكن لو نظرنا لأكثرهم مغالاة في الدعوة إلى الانفتاح على الثقافة الوافدة لوجدناهم مع ذلك لا يقللون من شأن التراث العربي، ولا يدعون إلى القطيعة التامة معه، فقد كانوا يدعون إلى الانفتاح على الثقافة الوافدة بالتوازي مع الدعوة إلى تنقيح تراثنا والبناء عليه، دون أن يدعوا إلى قطيعة تامة معه، ودون أن يروا فيه سببا في تأخر الثقافة والأمة العربية والإسلامية، وحتى أدلل على صحة ما ذهبت إليه، يمكن النظر إلى موقف الدكتور طه حسين من هذه القضية، وسوف أستشهد به باعتباره من أبرز النقاد الذين أثاروا حالة من الجدل في كثيرمن آرائه الأدبية والنقدية في هذه المرحلة الزمنية، ومن أكبر المتأثرين بالثقافة الوافدة ومناهج البحث فيها، إلا أنه مع ذلك لم ينادي بالقطيعة مع التراث الأدبي والنقدي، وهذا ما

نقف عليه في قوله "ونحن لا نحب أن يظل أدبنا القديم في هذه الأيام كما كان من قبل، لأننا لا نحب القديم من حيث هو قديم، ونصبوا إليه متأثرين بعواطف الشوق والحنين، بل نحب لأدبنا القديم أن يظل قواما للثقافة، وغذاء للعقول، لأنه أساس الثقافة العربية، فهو إذن مقوم لشخصيتنا، محقق لقوميتنا، عاصم لنا من الفناء في الأجنبي، معين لنا على أن نعرف أنفسنا، فكل هذه الخصال أمور لا تقبل الشك، ولا يحسن فيها المراء، ولكننا مع ذلك نحبُّ أن يظل أدبنا القديم أساسًا من أسس الثقافة الحديثة؛ لأنه صالح ليكون أساسًا من أسُس الثقافة الحديثة؛ ونُحِبُّ أنْ يَظَلَّ أَدَبُنا القديم غذاء لعقول الشباب؛ لأنَّ فيه كنوزًا قيمة تصلح غذاء لعقول الشباب"(١).

ومع ذلك، فقد عاد كثير من نقاد هذا التوجه عن آرائهم التي نشروها في بدايات حياتهم النقدية، ودعوا إلى ضرورة ضبط النفس في انفتاحها على الثقافات الوافدة حينما رأوا أن الثقافة العربية بدأت في الضعف والذوبان في الثقافات الوافدة نتيجة لدعواتهم، وهو ما تم مع الدكتور طه حسين والعقاد وزكي نجيب محمود وغيرهم من نقاد هذه المرحلة، فقد كانت آرائهم النقدية في نهايات حياتهم تدعوا إلى ضرورة الحفاظ على ملامح الهوية الثقافية العربية وضرورة تكوين ثقافة واقية تحمي الثقافات العربية من الذوبان، كما أقروا بتأثير الثقافة الوافدة السلبي عليهم، خاصة وأنه أبعدهم عن التراث الأدبي والنقدي العربي وقطع صلتهم به، ويكفي للتدليل على ذلك أن نطالع المقدمة التي صدر بها الدكتور زكي نجيب محمود كتابه (تجديد الفكر العربي) ففيها يقول"لم تكن قد أتيحت لكاتب هذه الصفحات في معظم أعوامه الماضية فرصة طويلة الأمد، تمكنه من مطالعة صحائف تراثنا العربي على مهل، فهو واحد من ألوف المثقفين العرب الذين فتحت عيونهم على

(١) حديث الأربعاء، الدكتور طه حسين، مؤسسة هنداوي للطباعة والنشر، ص ٢١.

فكر أوربي – قديم أو جديد – حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه، ولبثت هذه الحال مع كاتب هذه الصفحات أعواما بعد أعوام، الفكر الأوربي دراسته وهو طالب، والفكر الأوربي تدريسه وهو أستاذ، والفكر الأوربي مسلاته كلما أراد التسلية في أوقات الفراغ؛ وكانت أسماء الأعلام والمذاهب في التراث العربي لا تجيئه إلا أصداء مفككة متناثرة، كالأشباح الغامضة يلمحها وهي طافية على أسطر الكاتبين"[(١)]، ومن خلال هذه الكلمات نقف على أثر الوسائل التي تحدثنا عنها في المبحث الأول من هذا الفصل في تفريغ جيل الأدباء والنقاد في هذه المرحلة الزمنية من التراث العربي، ولو كان هؤلاء النقاد تنبهوا لهذه الآراء ودعوا إليها في فترة مبكرة من حياتهم، لكان النفع على الثقافة والهوية العربية أكبر نفعا، ولربما كان لدينا مدرسة أو منهج أو نظرية أدبية ونقدية عربية توازي التطور الذي حدث في الحياة الأدبية والنقدية الغربية، خاصة وأن هؤلاء الأدباء والنقاد تميزوا بثقافة واسعة، وقدرة بديعة في جانب التنظير والتأصيل، كما كان لهم أثر ملموس وصدى كبير في الحياة الأدبية والنقدية في الوطن العربي، فقد كان لكتاباتهم الأدبية والنقدية صوت مؤثر ومسموع في جيل الأدباء والنقاد الصاعد آنذاك.

ج – شيوع النزعة الإقليمية في دراسة الأدب العربي.

أما القضية الثالثة التي نشأت في هذه المرحلة الزمنية، فهي قضية النزعة الإقليمية في دراسة الأدب العربي، وقد جاءت هذه القضية نتيجة لما قام به الاستعمار من تقسيم للأوطان العربية ووضع الحدود والفواصل السياسية والجغرافية بينها بعد زوال دولة الخلافة، وقد عرضنا في حديثنا في الفصل الأول أن الأدباء

(١) تجديد الفكر العربي، الدكتور زكي نجيب محمود، دار الشروق، الطبعة السادسة ١٩٨٠م، ص ٥.

والنقاد والعلماء العرب في المرحلة الأولى حينما كانوا يؤلفون كتابا في تراجم الشعراء، أو يؤرخون لتاريخ الأدب وفنونه وأغراضه وقيمه الفنية، كانوا يتجاوزون الحدود وكانت نظرتهم واسعة وممتدة على بقية الأدباء والشعراء وطبيعة الحالة الأدبية والنقدية واللغوية في سائر أقطار الوطن العربي، وهو ما تبدل في هذه المرحلة الزمنية، فقد شاعت في هذه المرحلة الزمنية الدراسات الأدبية والنقدية التي تعنى بالحدود الإقليمية للدول العربية، ولم تعد النظرة الشاملة كما كانت في المرحلة الأولى، وربما يظهر أدباء ونقاد ويموتون في بعض الأوطان العربية دون أن تتجاوز شهرتهم والدراسات عنهم حدود الإقليم والوطن الذي عاشوا فيه.

وقد تنبه لهذه القضية وعرض لها بالتفصيل الدكتور أحمد محمد علي حنطور في كتابه (دراسة الأدب العربي الحديث في صورة متكاملة، الرحلة إلى الحجاز أنموذجا)[1]، وبين المخاطر الأدبية والنقدية التي تترب عليها، ورأى أن هناك أسسا مشتركة في الأدب العربي بين بلدان الوطن العربي يجب أن نبني عليها حتى نتمكن من معالجة الضعف والخلل الذي أصبنا في هويتنا الثقافية نتيجة لهذه القضية، فقد رأى "أن وحدة اللغة، وتشابه أحداث الحياة، وامتزاج الثقافة لدى أدباء العالم العربي، يمثل قاعدة ثابتة تتيح للدارسين أن يتحركوا فوق محاورها لتقديم دراسات موازنة، تقرب ما تباعد، وتوضح ما أبهم، وتوحد ما تفرق في سنى القطيعة والصراعات، وتبني من اهتمامات الأديب العربي بقضايا أمته صرحا فكريا يحدد شخصية الأمة، ويبين مدى احتفاظها بهويتها التراثية، وعوامل تأثرها بغيرها من الثقافات، ويمكن من الاحتفاظ بملامح أدبها بين الآداب المختلفة"[2]،

(١) دراسة الأدب العربي الحديث في صورة متكاملة، الرحلة إلى الحجاز أنموذجا، الدكتور أحمد محمد علي حنطور، الطبعة الثانية ٢٠٠٤م.

(٢) دراسة الأدب العربي الحديث في صورة متكاملة، الرحلة إلى الحجاز أنموذجا، الدكتور أحمد محمد علي حنطور، ص ٧.

وقد تحدث بالتفصيل عن العديد من الموضوعات الخاصة بالنتاج الفني[١]، والدرس الأدبي[٢] والنقدي[٣]، التي يمكن أن تكون موضوعا وميدانا خصبا للدراسات الأدبية والنقدية، كما بين أهمية هذه الدراسات والفائدة المرجوة منها، فهذه الدراسات إن تمت تساعد "في التغلب على نزعة الإقليمية التي حصرت الدارسين داخل حدود بلادهم، تحت دعوى قرب الاتصال ببيئة البحث، وإمكانية الاطلاع على جميع النتاج، والاهتمام بالوطن، والقدرة على التحليل الفاهم العميق، إذ في وجود هذه الدراسات توثيق للروابط القومية، وتمكين لأبناء اللغة الواحدة من الوقوف على حركة الأدب العربي في بيئاته المختلفة، والربط الفكري بين شداته، والتأصيل لفهمه على نحو مستوعب عميق"[٤].

ومن هنا، فقد أسهمت هذه القضية في ضعف هوية الثقافة العربية، وقد تناسيناها وأصبح من الطبيعي أن يهتم الدارس في بحثه بالضفاف الزمانية والمكانية التي يعيش فيها للأسباب المتعلقة بضرورة قرب الاتصال ببيئة البحث، وهذه الأسباب مع قيمتها وأهميتها وضرورة مراعاتها في البحوث العلمية الجادة، إلا أن الواجب علينا أن نتنبه لمخاطرها، فقد نكون سببا في إضعاف هويتنا وثقافتنا ونذهب إلى حيث أريد لنا أن نذهب دون أن نشعر.

ح – ضعف الدراسات الأدبية والنقدية المتعلقة بالعصر العثماني.

أما القضية الأدبية والنقدية الرابعة التي برزت في هذه المرحلة الزمنية، قلة الدراسات الأدبية والنقدية التي تناولت الأدب والنقد في العصر العثماني، وقد عرضنا لهذه القضية في حديثنا عن الآثار الأدبية والنقدية لضعف الهوية الثقافية

(١) للاطلاع على الموضوعات الخاصة بالنتاج الفني، ينظر المرجع السابق، ص ٦.
(٢) للاطلاع على الموضوعات الخاصة بالدرس الأدبي، ينظر المرجع السابق، ص ٨.
(٣) للاطلاع على الموضوعات الخاصة بالدرس النقدي، ينظر المرجع السابق، ص ١٢.
(٤) المرجع السابق، ص ٢٠.

في المرحلة الأولى، وقد استمرت هذه القضية في هذه المرحلة أيضا نظرا لامتداد الدولة العثمانية في الفترة الزمنية الخاصة بالمرحلة الأولى وفي هذه المرحلة الزمنية أيضا، والصواب أن يتم التأريخ والتوسع في الدراسات الأدبية لجميع الحقب الزمنية ومحاولة توصيفها والتأريخ لها باعتبارها مرحلة من مراحل الأدب العربي، وهذه المراحل من الطبيعي أن يقوى الأدب أو يضعف فيها تارة أخرى، والصواب حينها أن تتجه الدراسات لتتأريخ وتقيم الواقع الأدبي والنقدي بصورة عامة حتى تستفيد الأمة في مراحلها المقبلة، خاصة وأن الأدب في هذه المرحلة الزمنية قد حافظ على مرجعيته الثقافية والتراثية العربية مع ضعفه وتدهوره، وقد كان ضعف الأدب في هذه المرحلة مسوغا للعديد من الأدباء والنقاد أن يتوجهوا إلى الانفتاح على الثقافة الوافدة بدلا من التوجه إلى التراث العربي، وهذا خطأ أدبي ونقدي أدى إلى ضعف الهوية الثقافية العربية، فمن الخطأ أن نهدم تراث أمة بسبب ضعف أدبها في مرحلة زمنية محددة، وهذا ما تجاوزته مدرسة البعث الإحياء حينما دللت على إمكانية النهوض بالشعر من مراحل الضعف التي مر بها في العصر العثماني من خلال محاكاة عصور الشعر العربي الأولى.

د – المحاكاة التامة للتيارات الأدبية والنقدية في الأدب والنقد الغربي.

من القضايا الأدبية والنقدية التي برزت بصورة جلية وأحدثت شرخا لا نظير له في قضية الهوية الثقافية في هذه المرحلة الزمنية، التأثر بالتيارات الأدبية والنقدية في الأدب والنقد الغربي، فالمتابع للأدب والنقد في الوطن العربي يرى أنه كان انعكاسا للحياة الأدبية والنقدية في الغرب، وهنا نقف على تبدل في المرجعية الفكرية لمعظم الأدباء والنقاد في الوطن العربي، فبعدما كان التراث العربي مرجعية فكرية في المرحلة السابقة، أصبح الأدب والنقد الغربي هو المرجعية في هذه المرحلة، وذلك بالتوازي مع كثرة الدعوات لضرورة تنقيح التراث العربي، وضرورة الجمع والمزاوجة بين تراثنا والانفتاح على الثقافة الوافدة، والتأكيد على أن تقدمنا الأدبي والنقدي مرهون بمحاكاة الأدب والنقد الغربي، وهذا ما أثر بصورة مباشرة

على ضعف الهوية الثقافية العربية، فكثرة الدعوات للانفتاح على الثقافة الوافدة، ومحاولة المحاكاة العمياء لكل توجه أو مدرسة أو مذهب أو منهج أدبي أونقدي ينشأ في الغرب، وأدخل الأدب والنقد العربي في حالة من التيه الثقافي التي لم يسبق له أن مر بها في أي مرحلة من مراحل تاريخنا العربي والإسلامي.

فعلى المستوى الأدبي، تأثرنا بصورة مباشرة بالمذاهب الأدبية التي نشأت في الغرب، وقد جاء التأثر في صورتين، الصورة الأولى، محاولة إسقاطها وإلصاقها على حياتنا الأدبية، والصورة الثانية جاءت في محاولة محاكاتها الواعية من قبل الأدباء والنسج على أسسها الفنية التي جاءت بها.

أما في الصورة الأولى، فقد أطلق أدباءنا ونقادنا على مدرسة البعث والإحياء المدرسة الكلاسيكية، وذلك لأنها تتشابه في بعض أسسها وملامحها الفنية العامة التي قامت عليها مع بعض الأسس الفنية للمذهب الكلاسيكي، ولو عدنا إلى الشاعر محمود البارودي وغيره من شعراء المدرسة وسألناهم: هل كنتم تحاكون المذهب الكلاسيكي الذي نشأ في الغرب عندما أقمتم المدرسة الأدبية الخاصة بكم؟ لكان جوابهم، أن مرجعيتنا الفكرية كانت عربية خالصة، فقد حاولنا أن نعيد الشعر العربي إلى عصور ازدهاره الأولى، وكانت محاكاتنا لتراث العربية وشعرها الأول هو المرجعية الأولى لنا، وبناء على ذلك، فمن الخطأ أن نلصق اسم المدرسة وننسبها للمذهب الكلاسيكي لمجرد التشابه في بعض الأسس الفنية بين هذه المدرسة وهذا المذهب، لكن نتيجة للتأثر الأعمى ومحاولة المحاكاة التامة وإلصاق وربط كل تطور في حياتنا الأدبية بنظير له في الغرب، ألصقنا هذه المدرسة بالمذهب الكلاسيكي، وكأن نشأت المدرسة وتطورها كان محاكيا للكلاسيكية الغربية، وهذا أبعد ما يكون عن الصواب.

أما الصورة الثانية، وهي عملية المحاكاة الواعية، فقد تمت في محاكاة العديد من الأدباء والمدارس الأدبية للمذهب الرومانسي والرمزي، وهو ما قام به شعراء مدرسة المهجر ومدرسة الديوان ومدرسة أبولو، وقد تمت أيضا في المحاكاة

الكبيرة للمذهب الواقعي في الجانب القصصي عند العديد من أدباء الوطن العربي، وقد كانت عمليات المحاكاة في هذه الأمور واعية ومتتبعة لخصائص المذاهب الأدبية الغربية بصورة كبيرة، ولكن من المفارقات التي تمت في عملية المحاكاة العربية، أن هذه المحاكاة تمت بعدما انتهت هذه المذاهب في الأدب الغربي بعقود زمنية طويلة.

أما على الجانب النقدي، فقد كان هناك تأثر بمدارس النقد ومناهجه التي ظهرت في النقد الغربي ومحاولة السير على خطاها من قبل العديد من النقاد في النقد العربي، فمن أبرز المدارس التي تأثر بها النقاد في الوطن العربي، المدرسة التاريخية في النقد الأدبي وهي المدرسة التي تأثر بها العديد من النقاد وعلى رأسهم الدكتور محمد مندور، ومدرسة النقد الجديد التي كثرت الدراسات حول أثرها في العديد من النقاد العرب، ورأى العديد من النقاد أنها تمثل المدرسة الأقرب إلى روح الثقافة العربية، وهذا الرأي في حد ذاته يكشف عن حجم عملية الإسقاط للثقافة الوافدة على واقعنا الأدبي والنقدي العربي في هذه المرحلة الزمنية، وما ينطبق على هذه المدارس ينطبق على العديد من غيرها.

أما الجانب المتعلق بمناهج النقد التي تعنى بقراءة النصوص وتفسيرها، فقد استوردها النقاد العرب بالكامل من النقد الغربي، فكلما جد منهج جديد في النقد الغربي يعنى بقراءة النصوص الأدبية وتفسيرها، تبناه النقاد العرب ودعوا إليه باعتباره أفضل المناهج النقدية وأكلمها في قراءة نصوصنا الأدبية، علما بأن هذه المناهج نشأت في بيئة وظروف مغايرة تمام لبيئتنا العربية وظروفنا السياسية والاقتصادية والثقافية والأدبية والنقدية، وقد كان الصواب أن يتوجه نقادنا إلى مناهج قراءة النصوص الأدبية العربية ويكملوا الجهود التي بدأها النقاد العرب قبل ذلك، وهذا ما ساهم في ضعف الهوية الثقافية العربية.

الفصل الثالث : المرحلة الثالثة من مراحل ضعف الهوية الثقافية (١٩٥٠- .....)

المبحث الأول: الأسباب التي أدت إلى ضعف الهوية الثقافية في هذه المرحلة

في هذه المرحلة تغيرت خريطة الصراع العالمي، وبدأت موازين القوى تتغير في العالم، ففي المرحلتين السابقتين، كان الاستحواذ على العالم العربي والإسلامي للاستشراق والاستعمار الفرنسي، ثم استحوذ الاستشراق والاستعمار الإنجليزي بعد ذلك على أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي ونافس الاستشراق الفرنسي وأزاحه وكانت له الغلبة والسيطرة.

أما في هذه المرحلة فلم يعد الصراع بين فرنسا وبريطانيا، بل دخلت الولايات المتحدة على الخط كقوة عالمية صاعدة لها أهدافها الساعية إلى السيطرة على العالم، وبدأت في تنافس شرس للسيطرة على العالم مع هذه الدول ودولة الاتحاد السوفيتي على وجه الخصوص آنذاك، ومع صعود الولايات المتحدة تغيرت أساليب السيطرة والهمينة التي سعت من خلالها إلى السيطرة الثقافية على بلدان العالم وخاصة بلدان العالم الإسلامي.

يؤرخ لهذه المرحلة ببداية الحرب الباردة التي بدأت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وقد سعت الولايات المتحدة إلى السيطرة على العالم من خلال مجموعة من برامج الدعاية الثقافية لثقافة الولايات المتحدة الأمريكية، و"كان أحد أهم الملامح الأساسية لذلك البرنامج، هو الحرص الشديد على أن يبدو كأن لا وجود له"[(١)]، فكان العمل يتم في سرية وخفاء بحيث يتوجه الناس إلى الثقافة والفكر والتنوير الأمريكي دون أن يشعروا، وكأن توجههم نابع من تلقاء نفوسهم، ومن

(١) من الذي دفع للزمار؟ الحرب الباردة الثقافية، تأليف: ف . س . سوندرز، ترجمة: طلعت الشايب، مراجعة: عاصم الدسوقي، المركز القومي للترجمة، الطبعة الرابعة٢٠٠٩م، ص ٢٣.

إيمانهم بأن التنوير والثقافة الأمريكية هي النموذج الذي يجب أن يحتذى وأن نسير عليه، وقد تم ذلك من خلال شبكة واسعة وشديدة التأثير من رجال المخابرات وخبراء الاستراتيجية السياسية والمؤسسات الرسمية والروابط والدراسات القديمة في الجامعات؛ بالاعتماد على ذلك كله بدأت وكالة المخابرات المركزية الرهناء منذ عام ١٩٤٧م في بناء كونسورتيم (اتحاد) كلمة بالانجيزي له واجب مزدوج: تحصين العالم ضد وباء الشيوعية، وتميهد الطريق أمام مصالح السياسة الخارجية الأمريكية في الخارج، وكان من نتيجة ذلك أن تكونت شبكة محكمة من البشر الذين يعملون بالتوازي مع الوكالة للترويج لفكرة مؤداها أن العالم في حاجة إلى سلام أمريكي، وإلى عصر تنوير جديد، وأن ذلك سوف يسمى بالقرن الأمريكي ...وكان ذلك الكونسورتيوم هو السلاح السري في الصراع الأمريكي أثناء الحرب الباردة، وهو سلاح له نتائج واسعة في ميدان الثقافة، وسواء أكان يروق لهم أم لا يروق، وسواء أكانوا على علم به أم لا؛ فإن قلة فقط من الكتاب والشعراء والفانين والمؤرخين والعلماء والنقاد، هم الذين لم تكن أسماؤهم مرتبطة على نحو أو آخر بتلك المؤسسة السرية، مؤسسة التجسس الأمريكية هذه، ظلت تعمل دون أن يكتشف أمرها ودون منافسة على مدى ما يزيد من عشرين عاما، وظلت تدير جبهة ثقافية معقدة باسم حرية التعبير، وبتعريفها للحرب الباردة بأنها (معركة من أجل الاستيلاء على عقول البشر) قامت تلك الجبهة بتكريس ترسانة من الأسلحة الثقافية: صحف، كتب، مؤتمرات، ندوات، معارض، حفلات موسيقية، جوائز ... إلخ"[١].

لقد آمنت الولايات المتحدة أن الحرب الثقافية أشد أثرا وأبعد نفعا من الحرب بالأسلحة، فالحرب الثقافية تهدف إلى السيطرة على العقول من خلال الثقافة، ومن

(١) من الذي دفع للزمار؟ الحرب الباردة الثقافية، تأليف: ف . س . سوندرز ، ص ٢٣.

خلالها ستضمن الولايات المتحدة التبعية لها، ولذلك أولت الحرب الثقافية جانبا كبيرا من اهتماماتها وجهودها في السيطرة على العالم في أوربا، وفي دول العالم العربي والإسلامي، وقد تم تنظيم العالم ومحاولة السيطرة الثقافية عليه من خلال إضعاف وتذويب الهويات الثقافية الخاصة وتوحيدها ودمجها في الهوية الثقافية الأمريكية الجديدة التي روجت لها، وقد تم ذلك من خلال نشر مفهوم الحرية الثقافية، ومن خلال افتتاح المؤسسات والمنظمات والمراكز الثقافية التي تخدم أهداف الولايات المتحدة، وسوف أتوقف بالتفصيل عند هذه الأساليب لنرى حجم التوجيه الثقافي الذي أصبنا به هويتنا الثقافية في هذه المرحلة الزمنية.

أ – الحرية الثقافية.

كان هذا المفهوم من المفاهيم الثقافية التي تم نشرها والترويج لها بشدة في هذه المرحلة الثقافية الجديدة، ويعني هذا المفهوم أن يكون بحرية كل إنسان في أي مكان أن يتعاطى ما يريده من ألوان الثقافة، وأن يتحدث بحرية عن آرائه وما يخطر بباله، وأن يكتب ما يريده دون رقابة أو قيد مهما كان هذا القيد فكريا أو حكوميا أو سياسيا أو مذهبيا، وقد سعت الولايات المتحدة إلى ترويج نفسها باعتبارها رائدة الحرية الثقافية الجديدة في العالم، وسعت إلى جذب الفنانين والكتاب والموسيقين والمثقفين والمفكرين من خلال هذا المبدأ، وذلك حتى تثبت"أن الغرب والولايات المتحدة كانوا مخلصين لحرية التعبير، وللإنجاز الفكري دون أية قيود على ما يجب أن تكتب، وما يجب أن تقول، وما يجب أن تفعل، وما يجب أن ترسم"(١).

وقد تم العمل على هذا المبدأ وتفعيله من خلال مجموعة من البرامج، كان أبرزها الجهود التي قامت بها (منظمة الحرية الثقافية)، التي كانت تبث فكرها

(١) من الذي دفع للزمار؟ الحرب الباردة الثقافية، تأليف: ف . س . سوندرز، ص ١٢٥.

ورؤيتها عبر الجرائد والمجلات والمؤتمرات واللقاءات الثقافية، وسوف أتوقف عندها بالتفصيل في المحور التالي المتعلق (بافتتاح المؤسسات والمنظمات والمراكز الثقافية)، أما في الإعلام والسينما فقد كان هناك برنامج (الحرية المقاتلة)، وقد كانت فكرته "صنع شعار سياسي يوحي لمعظم الناس بأن الانطباع قد انبثق تلقائيا، بينما الحقيقة هي أنه أدخل إلى الثقافة عمدا، كانت عملية دعائية متقنة في ذلك الوقت"(١)، وقد تم الترويج لهذا البرنامج وتنفيذه من خلال الأفلام السينمائية التي رعتها شركة هوليود لإنتاج الأفلام السينمائية الأمريكية(٢).

لكن هناك سؤال يجب الإجابة عنه، هل كانت الحرية الثقافية التي بشرت بها الولايات المتحدة حرية ثقافية حقيقية بحيث يحق لأي فرد أن يكتب ما يريد وما يرغب دون خطر رقابي؟.

وهنا نقول بأن الولايات المتحدة كانت ترى أن المفاهيم والأفكار الثقافية التي تريد نشرها وبثها إذا قدمت بصورة صريحة ومباشرة سوف تقابل بالرفض، ولذلك تم نشر هذه الأفكار بصورة غير مباشرة، بحيث يكون هناك توجيه لعقول الناس بصورة هادئة دون أن يشعروا بأي توجيه أو تدخل، وذلك من خلال الجرائد والمجلات ووسائل الإعلام المتعددة التي يقرأها الناس ويشاهدونها، وكأن الإيمان بالأفكار التي يتم ترويجها نابع من اقتناع الناس ورؤيتهم وحكمهم على الأمور، وحينها سيكون الإيمان بتغيير أفكارهم الثقافية أفضل نفعا وأكثر جدوى، ولذلك كانت المقالات والمحاضرات والندوات والأفلام التي يتم نشرها وبثها والتنظيم لها محاطة برقابة شديدة بحيث تؤدي هدفها الذي نشرت من أجله، وأي تجاوز أو نقد كان يقابل بالرفض والمنع من النشر، وبهذا نرى أن الحرية التي كان يتم الترويج

(١) من الذي دفع للزمار؟ الحرب الباردة الثقافية، تأليف: ف . س . سوندرز ، ص ٣١٢.

(٢) تفاصيل البرنامج والأفلام التي تم انتاجها بناء على تحقيق هذا البرنامج بالتفصيل المرجع السابق، ص ٣١٢.

لها كانت حرية مقيدة لخدمة أهداف محددة، وهذا ما ينطوى على مجازفة "بإنتاج نوع من الحرية التابعة، بدلا من الحرية الحقيقية، حيث يعتقد الناس أنهم يتصرفون بحرية بينما هم في الوقاقع مكبلون بقوى لا سيطرة لهم عليها؟"(١).

كان لمفهوم الحرية الثقافية أثره في إضعاف الهوية الثقافية العربية، فقد تجاوز العديد من الكتاب والمثقفين والمفكرين والأدباء والنقاد العرب الحديث عن قضية التفاعل الحضاري مع الغرب إلى الطعن في التراث والثقافة العربية والتقليل منهما بكل جرأة دون أي ضوابط أو قيود، وأصبح هناك جرأة على نقد التراث والثقافة والعلوم العربية والإسلامية بصورة مباشرة تحت ستار الحرية الفكرية وحق أي إنسان أو مفكر في كتابة ما يريد، وكان هذا الحدث أبرز تحول مرت به الثقافة العربية في بدايات النصف الثاني من القرن العشرين، فحتى نهايات النصف الأول من القرن العشرين كان هناك دعوات من قبل الأدباء والنقاد العرب بضرورة الانفتاح الثقافي على الغرب، وكانت هناك محاكاة تامة للمدارس والاتجاهات والمذاهب والمناهج الغربية، لكن لم يكن هناك جرأة على التقليل من التراث والثقافة العربية بالصورة التي وجدت في هذه المرحلة الزمنية.

لقد استبيحت جميع العلوم الإسلامية والعربية تحت ستار تحديث العقل العربي، وشهدت هذه المرحلة نقاشات حادة نتيجة لردة الفعل التي أحدثتها مدرسة الحداثة التي نشأت في الوطن العربي في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين، وقد تزعمت هذه المدرسة مبدأ الحرية الثقافية والفكرية التامة وتركت أثرا وتحولا فكريا ملموسا أسهم في التقليل من شأن التراث العربي وإضعاف الهوية الثقافية العربية، لكن ما هو أخطر من ذلك، أن أثرها لم يقف عند حدود الشعر والأدب والنقد باعتبارها مدرسة أدبية ونقدية في المقام الأول، بل تجاوزه إلى العديد من

(١) من الذي دفع للزمار؟ الحرب الباردة الثقافية، تأليف: ف . س . سوندرز، ص ٢٧.

العلوم الإسلامية التي تنهض وتؤسس على العناية بالقرآن الكريم والسنة النبوية، وتتخذ منهما مرجعا لاستنباط أحكام الشريعة الإسلامية، وهذا ما أسهم في ضعف الهوية الثقافية العربية، وإدخالها وإدخال نقادها ومفكريها وعلمائها في متاهات، ومناقشات، وحوارات فكرية، استنزفت جهودهم، وشتت أفكارهم، في قضايا فرعية أبعدتهم عن النهوض الثقافي والعلمي واستكمال حلقات العلوم الإسلامية والتكامل فيما بينها، وأصبحنا في وطننا العربي في كل فترة نسمع ضجة حول مثقف أو مفكر أدلى برأي شاذ وغريب تحت دعوى الحرية الثقافية والفكرية، وانحصر دورنا في الرد على هذه الآراء الشاذة وتفنيدها بعيدا عن العمل الجاد المتعلق بالنهضة العلمية والثقافية العربية.

ب – افتتاح المؤسسات والمنظمات والمراكز الثقافية.

كان لا بد من وجود قنوات عمل منظمة تعمل بصورة مؤسسية ومنهجية لنشر الأفكار والقيم وخطط العمل الثقافية التي ترغب الولايات المتحدة في تنفيذها، ومن هنا تولدت فكرة إنشاء مراكز ثقافية حول العالم يكون مهمتها نشر الثقافة الأمريكية وتقديمها في صور متعددة للشعوب التي يتم افتتاح الفروع فيها، على أن تتعدد هذه الصور وتتنوع ما بين عروض السينما، وحفلات الموسيقى، والمعارض الفنية، والمحاضرات والندوات العامة، وإنشاء الجرائد والمجلات، ورعاية الفنانين والأدباء والمثقفين، ونشر القصص والروايات ...إلخ، ولكن شريطة أن يتم الالتزام في عمل هذه المراكز الثقافية بالمبدأ الأساسي، وهو الحرص الشديد على أن يبدو كأن لا وجود له، بحيث يتوجه الناس والأدباء والمثقفين إلى الثقافة والفكر والتنوير الأمريكي دون أن يشعروا، وكأن توجههم نابع من تلقاء نفوسهم.

ومن هذا المنطلق، فقد تم التأسيس الفعلي في عام ١٩٥٠م، لمنظمة ثقافية عالمية جديدة باسم (منظمة الحرية والثقافة)، التي تحولت في عام ١٩٦٧م إلى (الاتحاد الدولي للحرية الثقافية)، في الفترة من ١٩٥٠م حتى ١٩٦٧م قامت المنظمة بإنشاء مكاتب وفروع لها تم اختيارها بعناية شديدة "في ٣٥ دولة، ويعمل

بها عشرات الموظفين، وتُصْدِرُ أكثر من عشرين مجلة ذات نفوذ، وتنظم المعارض الفنية، وتمتلك مؤسسات إعلامية، وتعقد مؤتمرات دولية تحضرها شخصيات بارزة، وتكافيء الفنانين، والموسيقين بالجوائز، وترعى معارضهم وحفلاتهم"(١)، وكانت مهمتها وأهدافها الرئيسية تتمثل في المحاور الآتية:

- تنبيه المثقفين في العالم إلى قيمة وأهمية التوجه نحو الرؤية والأسلوب الأمريكي في الحياة، بالإضافة للترويج ونشر المفاهيم والقيم الثقافية التي تريد الولايات المتحدة بثها في الشعوب.
- أن تقدم المنظمة "دعما مستقلا لأهداف السياسة الخارجية الأمريكية التي كانت تتطلع إلى أوربا موحدة عن طريق عضوية حلف شمال الأطلنطي"(٢)، وهو ماتم بالفعل.
- أن تكون "بمثابة مبعوث أو رسول لإنجازات الثقافة الأمريكية في العالم، وتعمل على التقليل من شأن الصور النمطية السلبية السائدة عنها في أوربا بعامة، وفي فرنسا بخاصة، وهي أن أمريكا صحراء ثقافية جرداء، كما كان عليها أن ترد النقد السلبي الموجه إلى جوانب أخرى من الديمقراطية الأمريكية بما في ذلك سجل حقوق الإنسان"(٣).

كانت هذه المنظمة اليد الطولى لجهاز المخابرات الأمريكية التي يتم من خلالها إعادة تشكيل الوعي الثقافي العالمي للإيمان بالثقافة الأمريكية، وذلك من مختلف الواجهات الإعلامية والفنية والثقافية والتجارية، وقد عمل هذا الجهاز على توحيد المثقفين من خلال بناء البنية الثقافية في العالم بما يتوافق مع الثقافة الأمريكية، وإبعاد كل مخالف لتوجه الثقافة الأمريكية من خلال التدخل في نتائج

(١) من الذي دفع للزمار؟ الحرب الباردة الثقافية، تأليف: ف . س . سوندرز، ص ٢٣.
(٢) من الذي دفع للزمار؟ الحرب الباردة الثقافية، تأليف: ف . س . سوندرز، ص ١٢٥.
(٣) المرجع السابق، ص ١٢٥.

المسابقات العالمية، ومنح الجوائز لمن يؤيد السياسة الثقافية، وحجبها لمن يعارض.

- ركزت المنظمة عملها على الاهتمام بالفنون، وكان ذلك لسببين؛ الأول"أن تنتقل معالم الفن الغربي بالكامل إلى الولايات المتحدة وذلك مع تواجد جاذبية الإنتاج الصناعي والقوة السياسية، وحينها لن تكون الولايات المتحدة الأمريكية "هي المكان الذي يشعر فيه الفنان بأن عليه أن يهرب منه لكي ينضج ويكتمل في أوربا"(١)، أما السبب الثاني، أن تكون أمريكا ونيويورك على وجه الخصوص مركز العالم الثقافي كما هي مركزه في السياسة والمال، وفي هذا الوقت لا بد لها من فن عظيم يلائمها ويناسبها، وقد أدرك القائمون عليها هذا الأمر، فأمريكا "لن تكون قوة عظمى إن لم يكن لديك فن يتماشى معها(٢)، ولذلك اتجهت"السياسة الأمريكية إلى تصويب ضرباتها على جبهة الثقافة العريضة بما تشمله من أفكار، وفنون، وآداب، وعلوم، وكل ما يتعلق بالكلمة المقروءة والمسموعة والمرئية.

توسعت المنظمة في أعمالها وأصبح لها العديد من الفروع حول العالم، وأصبح لها العديد من الجرائد والمجلات ودور النشر والكتاب والمؤلفين والمثقفين الذين كانوا يعملون وفق أجندتها وسياساتها الثقافية والفكرية، وقد قوبلت المنظمة في بداية عملها "بارتياب شديد، كان النشطاء الذين دعموها يحاولون إقناع أنفسهم بأن تلك الشكوك كانت مجرد آثار هامشية للدعاية المعادية لأمريكا، والتي كانت رائجة في تلك الأيام، أما الذين لم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك فكانوا يستغلون أي فرصة ليتساءلوا عن شرعيتها كمنظمة حرة ومستقلة، أما قدرتها على الصمود أمام

(١) من الذي دفع للزمار؟ الحرب الباردة الثقافية، تأليف: ف . س . سوندرز ، ص ٢٨٢.

(٢) من الذي دفع للزمار؟ الحرب الباردة الثقافية، تأليف: ف . س . سوندرز ، بتصرف، ص٢٨٢.

تلك التحديات، فهي دليل على الإصرار والمثابرة العنيدة من المؤمنين بهدفها (سواء من داخلها أو من خارجها)"[١].

تنوعت أساليب وصور المنظمة في الترويج والهمينة الثقافية على العالم، وقد توزعت أعمالها وجهودها على محاور العمل الآتية:

- إصدار العديد من الصحف والمجلات الثقافية والفكرية، وقد كانت الكلمة المقروءة آنذاك لها أثرها وقيمتها، وقد أنشأت المنظمة العديد من الجرائد والمجلات الثقافية والفكرية والفنية والنقدية، كما قامت بتمويلها بالكامل والإنفاق عليها، والتكفل بتكاليف التحرير والطباعة والنشر والتوزيع والترويج لها، وحافظت على استمرارها من خلال الدعم المادي حتى لا تنهار، خاصة وأن بعضها كان لا يحقق أرباحا تساعدها على استكمال مسيرة النشر والتوزيع، كما تدخلت في تعيين رؤساء التحرير والقائمين على المجلات في مجالس الإدارة وتغيرهم بمن يحقق أهداف المنظمة[٢].

كانت أول مجلة أنشأتها المنظمة هي مجلة بريف (Preuves) البرهان أو الدليل[٣]، كما ساعدت المنظمة – على سبيل المثال لا الحصر – في تأسيس ونشر مجلة كوادرنوز (Cuadernos) الوجهة الأساسية لمثقفي أمريكا اللاتينية وقد صدرت في عام ١٩٥٣م، وفي فينا أصدرت المنظمة مجلة فورم (forum) في بداية عام ١٩٥٤م، وفي ايطاليا ظهرت مجلة (تيميو برزنت (Tempo Present)، وفي استراليا أنشأت مجلة كوادرانت (Quadrant)، وفي الهند

(١) ينظر المرجع السابق، ص ١٢٩، وص ١٤٨، الجانب المتعلق بنقد فرنسا لمؤتمر المنظمة عن الفنون.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(٣) ينظر تفاصيل إنشاءها في كتاب من الذي دفع للزمار؟ الحرب الباردة الثقافية، تأليف: ف . س . سوندرز، ص ١٢٨.

أصدرت مجلة كويست (Quest) في أغسطس ١٩٥٥م.... إلخ، أما أبرز مجلة رعتها المنظمة وحققت أهدافها وكانت أبعدها أثرا للمنظمة، فقد كانت مجلة انكاونتر البريطانية (Encounter) التي صدرت في عام ١٩٥٣م وتوقفت في عام ١٩٩١م، حينما كشف أمر تمويلها من المخابرات الأمريكية.

- قامت المنظمة بإنشاء الاتحادات والروابط للكتاب والأدباء والمثقفين والنقاد والفنانين في العديد من الدول، ورعت مؤتمراتهم وندواتهم وتجمعاتهم وفعاليتهم وأنشطتهم الأدبية والثقافية، بالإضافة إلى نشر أعمالهم ومؤلفاتهم وقصصهم وروياتهم الأدبية، فأسهمت –على سبيل المثال لا الحصر– في تأسيس الاتحاد الإيطالي للحرية الثقافية في أواخر ١٩٥١م، وأصبح مركزا لفيدرالية تضم حاولي مائة تجمع ثقافي مستقل، وأصدر نشرة حرية الثقافة (Liber Della cultura)، ونشرة بعدها (Tempo Presente)، كما دعمت المنظمة الفرع البريطاني (الجمعية البريطانية للحرية الثقافية) التي تأسست في يناير ١٩٥١م[١].
- اتبعت المنظمة سياسة نشر الكتب فلم يتوقف الأمر عند حدود المجلات والصحف، بل تم العناية بالكتب عناية بالغة، كما كان هناك اهتمام بترجمة الكتب المؤثرة والمعبرة عن السياسات والأفكار السياسية والثقافية لمنظمة الحرية والثقافة، بحيث يتمكن العديد من شعوب العالم من قراءة هذه الكتب بلغاتهم والتأثر بما فيها من أفكار وقيم تبنتها المنظمة، وقد كان إيمانهم بتأثير الكتب كبيرا، فقد ذكر أحد كبار المسؤولين عن العمل السري المتعلق بنشر الكتب وتوزيعها وترجمتها، أن الكتاب له قيمة وأهمية تستحق العناء والمشقة، "فالكتب تختلف عن كل وسائل الدعاية الأخرى أساسا، لأن كتابا واحدا يمكن

(١) المرجع السابق، ص١٣٠.

أن يغير توجهات وسلوك قاريء بشكل لا يتحقق عن طريق أي وسيلة أخرى، الأمر الذي يجعل الكتب أهم سلاح في استراتيجية الدعاية بعيدة المدى"[١].

وانطلاقا من هذه القيمة والأهمية، فقد كان برنامج الكتب السرية في ال CIA يسير وفق الرؤية والمنهجية الأساسية التي سارت عليها بقية الوسائل الأخرى، كان يسير ونصب عينيه السياسة التالية– كما يقول المصدر –: "نشر الكتب أو توزيعها في الخارج دون الكشف عن أي تأثير أو نفوذ للولايات المتحدة، وذلك عن طريق دعم المطبوعات الأجنبية والناشرين بشكل سري، نشر الكتب التي لا يظهر بها أي أثر لعلاقة واضحة بحكومة الولايات المتحدة، وخاصة إذا كان موقف الكاتب دقيقا أو حساسا. نشر الكتب لأسباب عملية، بصرف النظر عن قيمتها التجارية، حفز ودعم المؤسسات المحلية أو العالمية لنشر الكتب أو توزيعها"[٢]، تنوعت الكتب ما بين الكتب الساسية والثقافية والأدبية والشعرية والقصص والروايات وكتب الفنون.

- دعم الروائيين والأدباء والشعراء نظرا لتأثيرهم في المجتمعات، فهم الذين يربون أذواق الناس ويسهمون في تشكيل وعيهم وثقافتهم وفكرهم، وإذا تم التأثير عليهم فقد سهل على المجتمعات أن تسير في الطريق الذي يرسم لها، ولذلك وجهت المنظمة جهودها لدعمهم ماليا ومعنويا، وإفساح المجال العام لهم في المحاضرات والندوات والمؤتمرات الثقافية، وقد كان بعض الأدباء يعلم أنه مدعوم من قبل المنظمة ويعرف مصدر تمويله وتمويل مؤلفاته وإبداعاته وتسويقها، والبعض الآخر كان يسير في الاتجاه الذي رسمته المنظمة دون أن يدري ودون أن يكون له علم، وهذا ما ذكره هاري هيوبارد الروائي الذي كان

(١) من الذي دفع للزمار؟ الحرب الباردة الثقافية، تأليف: ف . س . سوندرز، ص٢٧١.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٧١.

يعمل مع وكالة المخابرات ومنظمة الحرية للثقافة في قوله "كنت تحت أي اسم وهمي أقوم بالمساعدة في كتابة روايات موالية للـ (CIA) إلى جانب مراجعة كتاب مدرسي أو كتابين ... وهذا غير كتابة موضوع لمجلة عن البغض الجديد للخطر الشيوعي القديم"(١).

- استمالة قادة الرأي وجماعات تشكيل الرأي من الصحفيين والمعلقين السياسين والفنانين وأساتذة الجامعات والعلماء والمثقفين وغيرهم من المؤثرين في المجتمعات حتى يتمكنوا من المناداة بأفكار المنظمة ونشرها في مجتمعاتهم، وذلك من خلال برامج التعاون والتباد الثقافي والندوات وحلقات الحوار وتبادل الزيارات بين الأشخاص ومنح الدرجات العلمية والجوائز الفخرية، وخير دليل على ذلك التدخل في الجوائر.
- رعت المنظمة العديد من فرق الموسيقى والفنون، ورعت عروضهم الموسيقية والفنية وروجت لها وأسهمت في إقامتها، كما كان هناك رعاية ودعم لجانب الدراما والسينما والتلفزيون والأفلام والمسلسلات التي تروج لأفكار المنظمة.

كان الإنفاق على البنود السابقة يتم بلا رقيب وبلا حساب، وكان الدعم مستمرا بلا قيد، وكل بند له فريق يعمل على إدارته وتوجيهه وقيادة العمل فيه بما يحقق أهداف المنظمة، وكان أبرز هدف هو السيطرة على عقول الشعوب والترويج لفكر الولايات المتحدة وثقافتها، وأي فكر أو ثقافة معادية يجب أن تواجه وأن يتم تفكيكها.

آتت الجهود السابقة ثمارها، وافتتن المثقفون في أمريكا بالإنجازات التي تحققها بلادهم، ولذلك قويت علاقتهم بدولتهم وتوطدت، وأصبحوا ينظرون إلى

(١) من الذي دفع للزمار؟ الحرب الباردة الثقافية، تأليف: ف . س . سوندرز، في ص ٢٧٣، هناك بيان ببعض الكتاب الذين كانوا يعرفون بأنهم يعملون لحساب وكالة المخابرات المركزية، مع ذكر أعمالهم التي كتبوها بالتعاون مع وكالة السي آي ايه.

بلادهم نظرة جديدة بعدما كانت النظرة السابقة أن أمريكا دولة معادية للفن والثقافة، أما الآن، فقد بدأ المد يتغير "ولم تعد أوربا تعتبر حرما مقدسا، لم تعد تؤكد تلك التجربة الثقافية الثرية التي توحي بنقد الحياة الأمريكية وتبرره، لقد أكملت العجلة دورتها، وأصبحت أمريكا الآن هي حامية الحضارة الغربية"(١).

انتهى دور المنظمة(٢)، واكتشف أمر دعمها وتمويلها من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وتبين حجم الدعم المالي والفكري والثقافي للمشروعات السابقة ولم يعد خافيا على أحد، وكذلك توقفت مجلة انكاونتر الراعي الرسمي للمنظمة والمعبر الأول عن مشروعها الثقافي والفكري على مستوى العالم في عام ١٩٩٠م، لكن بقيت الآثار الثقافية التي روجت لها المنظمة وظل أثرها باقيا بعد أن حققت المنظمة أهدافها بنجاح تام، "وبحلول منتصف الستينات كانت المنظمة قد وسعت من برنامج مطبوعاتها ليشمل مناطق أخرى ذات أهمية استراتيجية: أفريقيا والعالم العربي والصين"(٣)، وكان من بين الجرائد والمجلات التي أنشأتها في الوطن العربي مجلة حوار، وقد بين الكاتب دنيس جونسون أن جون هانت مندوب منظمة مؤتمر الحرية للثقافة قد زاره في أوائل الستينات وأبلغه أنه يفكر في إصدار مجلة ثقافية باللغة العربية وإسناد رئاسة تحريرها إلى يوسف الخال صاحب مجلة شعر في بيروت، إلا أنه اقترح عليه توفيق صايغ(٤)، وهذا ما يدلل على أن الثقافة العربية لم تكن بمعزل عن هذه الأحداث، وإنما كانت مستهدفة كغيرها من الثقافات الأخرى، وهذا ما ساهم في ضعفها بصورة كبيرة في هذه المرحلة الزمنية.

---

(١) من الذي دفع للزمار؟ الحرب الباردة الثقافية، تأليف: ف . س . سوندرز، في ، ص ١٨٧، وينظر بتوسع ص ١٨٨ وما بعدها.

(٢) للحديث عن نهاية المنظمة ينظر كتاب: من الذي دفع للزمار؟ الحرب الباردة الثقافية، تأليف: ف . س . سوندرز، ص ٤٣٧ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٤٢.

(٤) https://rashf.com/book/١١١١١٣٣٨٦

المبحث الثاني: أثر الهوية الثقافية وانعكاسها على الحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة

ساعدت الأحداث التي مرت بها هذه المرحلة في ضعف هوية الثقافة العربية، وهذا ما انعكس على الحياة الأدبية والنقدية بصورة سلبية نتيجة للجرأة وهدم الثوابت المتعلقة بالقضايا الأدبية والنقدية التي دار النقاش حولها في هذه المرحلة الزمنية.

وإذا كان لضعف الهوية الثقافية في كل مرحلة آثاره على القضايا الأدبية والنقدية، فأول ما يلاحظ في هذه المرحلة الزمنية، أن تناول القضايا الأدبية والنقدية، وقضايا التراث الأدبي والنقدي قد أصبح منظما وممنهجا من قبل العديد من الأدباء والنقاد الذين أعلنوا عن تجمعهم في مدرسة تعبر عن رؤيتهم وأهدافهم الفنية والأدبية والنقدية، وقد دافعوا من خلال هذه المدرسة عن رؤيتهم الفنية والنقدية، كما التزموا بها في إبداعهم وتأليفهم ونقدهم، وهذا ما حدث في مدرسة الحداثة الشعرية التي اتخذت من مجلة (شعر) التي أنشأت في عام ١٩٥٥م في بيروت منبرا لنشر أفكارها الأدبية والنقدية، ولذلك كان لآراء هذه المدرسة أثر ملموس في الحركة الأدبية والنقدية ترتب عليه الكثير من ردود الفعل في الوطن العربي، وإذا كان هناك العديد من الأدباء والنقاد الذين لم ينتسبوا للمدرسة بصورة مباشرة، إلا أنهم كانوا يحاولون التقرب إلى رواد المدرسة حتى لا يتهموا بالانغلاق والتقوقع داخل الذات والوقوف ضد تيار الحداثة الذي اكتسح الوطن العربي وجميع العلوم الإسلامية وأصبح له تأثير في حياتنا الأدبية والنقدية، وسوف أتناول القضايا الأدبية والنقدية التي تأثرت بضعف الهوية الثقافية في هذه المرحلة الزمنية.

أ- الدعوة إلى تحديث العقل العربي من خلال الانفتاح على الثقافة الوافدة.

كان من أبرز القضايا الأدبية والنقدية التي أثيرت في هذه المرحلة الزمنية وتأثرت بضعف الهوية الثقافية، قضية الموقف من التفاعل مع الثقافة الوافدة، وقد عادت هذه القضية للواجهة مرة أخرى، وانقسم النقاد فيهما لقسمين، القسم الأول

الذي تبنى موقف نقاد النصف الأول من القرن العشرين المتمثل في الجمع والمزج بين الثقافة الوافدة مع ضرورة الاهتمام بالتراث والعناية به، أما القسم الثاني الذي ميز هذه المرحلة، فهو القسم الذي نادى بالقطيعة التامة مع التراث، ورأى أن تحديث العقل العربي وتجديد الحياة الأدبية والنقدية لن يتحقق إلا بالانفتاح التام على الثقافة الغربية، والتوجه للترجمة والتعريب للثقافة الوافدة بصورة تامة، وهذا ما عبر عنه الشاعر يوسف الخال الذي رأى أن الواجب علينا أن نتوجه لعملية الانفتاح اللا محدود على الثقافة الغربية من خلال الترجمة والتعريب، وذلك بدلا من الانكباب على نشر التراث الماضي وإعادة إحيائه "فالوقت قد حان لأن نفهم حقيقة لا خلاص لنا إلا بفهمها، وهي أن النهضات لا تقوم بالعودة إلى نشر الآثار الماضية وإعادة نشرها واجترار معانيها ومبانيها، وإنما تقوم على التأثر بما في تراث حي آخر، تأثرا عميقا شاملا، غايته أو نتيجته التبني والتملك إلى أقصى حد، فإذا كان الأدب أو الفكر العربي قد انحط في الأجيال الأخيرة، فلأن قيمه لم تقو على التجدد والنمو والاستمرار، إلا بالقدر الذي انتهى إليه، فإذا شئنا تجديده وإنماءه وحمله على الاستمرار ترتب علينا تلقيحه بقيم أخرى، ثبت حتى الآن أنها تقوى على التجدد والنمو والاستمرار، وهذا التلقيح لا يكون طفرة ولا اعتباطا، ولا شيء مما يصيب التعريب اللا مسؤول، وإنما يكون بالتصميم وبالغرف من أعمق الأعماق...ونهضتنا الأدبية أو خروجنا من أزمتنا الأدبية لن تتم، في المبنى، إلا بالتحرر من أساليبها البعيدة عن الحياة، كما أنها لن تتم في المعنى، إلا بالاتصال من جديد بمجاري الحياة الفكرية الأصيلة الحية في العالم المتحضر – هذا الاتصال الذي من شروطه القيام بحركة نقل وتعريب عميقة مسؤولة شاملة، هدفها التبني والاحتضان، ونتيجتها الكبرى تلقيح أدبنا وحياتنا بقيم تتجدد وتنمو

وتقوى على الاستمرار "[1].

وقد أثر هذا التوجه على الحياة الأدبية والنقدية بصورة كبيرة نتيجة لزيادة عمليات المحاكاة التي تمت للأدب والنقد الغربي بصورة تامة، وفضلا عن ذلك، فقد جاء أكبر أثر سلبي لهذه الدعوات على القضية التالية، وهي قضية الموقف من التراث النقدي.

ب – الدعوة إلى القطيعة مع التراث الأدبي والنقدي.

كانت هذه القضية هي القضية الثانية التي كثر حولها الجدل بصورة لم تشهدها أي مرحلة سابقة، فقد تجاوزت الدعوات حدود تنقيح التراث وإعادة قراءته إلى الدعوة للقطيعة التامة معه، وقد كانت هذه القضية مرتبطة بالقضية السابقة ارتباطا وثيقا، فبقدر المغالاة والتطرف في الدعوة إلى الانفتاح على الثقافة الوافدة، كانت الدعوات تشتد وتقوى للقطيعة التامة مع التراث.

وسوف نستشهد هنا بكلام الشاعر يوسف الخال أيضا لنقف على مدى الترابط الوثيق في كلامه بين الدعوة إلى الانفتاح اللا محدود على الثقافة الوافدة وبين القطيعة التامة مع التراث الأدبي والنقدي، يقول الشاعر يوسف الخال "تراث الأمة هو التراث الذي نعيشه في الزمن الحاضر، لا الذي عشناه في الزمن الماضي، وإن كل محاولة إحياء اصطناعية هي محاولة عقيمة. وما ذلك إلا لأن فعل الحياة قد اتخذ بشأن هذا التراث قراره الذي لا مرد له، فأبقى على الصالح للبقاء، وذهب بالذي يستحق الذهاب به"[2].

وبالإضافة للموقف السابق، فقد حمَّلوا الأدباء والنقاد المحافظين على التراث مسؤولية تأخر الحياة الأدبية وضعفها، فالأدباء والنقاد المحافظين من وجهة نظرهم

---

(١) دفاتر الأيام، أفكار على ورق، يوسف الخال، رياض الريس للكتب والنشر ، الطبعة الأولى، ص ١٣.

(٢) دفاتر الأيام ، أفكار على ورق ، يوسف الخال، ص ٢٥.

لم يقوموا إلا بتقليد النماذج التراثية، كما أن تقليدهم لم يتناول "الروح الداخلية في هذه النماذج، إذ لو فعل لكان أجدى، لكنه تناول الشكل، وفوق ذلك لم يفهم من الشكل إلا جانبه اللغوي، لهذا كانت النهضة، إذا جاز لنا أن نسميها كذلك، إحياء لأساليب اللغة القديمة، وكان من الطبيعي أن يوافق ذلك إحياء النماذج الأدبية التي تتمثل فيها قليلا أو كثيرا قوة اللغة وأصوليتها، هذا الإحياء لم يفهم روح اللغة العربية: نظر إليها من زاوية النحو والصرف، لا من زاوية الشعر والإبداع، لذلك لم يفهم الشعر العربي ولا الروح العربية"(١).

كما حملوهم كذلك مسؤولية عزوف القراء عن الاهتمام بالشعر العربي، وقد بين أدونيس أنه يجب علينا من هذه الناحية أن نعذر "الذين يقولون لنا من الأجيال الطالعة إن الشعر العربي رتيب عادي لا يأسر ولا يفاجئ ولا يهز ، فقد نقلته إليهم عقليات ومناهج لا ترى فيه أبعد من المفردات والوزن والموضوعات التي اصطلح عليها والمقاييس التي شاعت ، وهكذا بدا لهذه الأجيال شعرا جافا بعيدا ، وبدا في جفافه وبعده خاليا من الفن ، وقد تطور موقف اتهام الشعر العربي القديم إلى العزوف عن قراءته ، وخصوصا بين فئات الجيل الطالع ، وربما لم يعد يجد فيه الكثير بينهم أكثر من ظواهر ماتت لا تجوز العودة إليها"(٢).

ومن يطالع الواقع الأدبي والنقدي بصدق وإخلاص يرى أن هذه الدعوات المنادية إلى القطيعة مع التراث كانت سببا في ضعف هوية الثقافة العربية وتأخر الحياة الأدبية والنقدية العربية، كما أنها هي المسؤول الأول عن عزوف القراء عن الأدب العربي نتيجة للمغالاة في التجريب الذي وصل إلى درجة الغموض التام في الجانب الإبداعي والنقدي، فضلا عما أثارته دعواتهم في خلق حالة من الجدل

(١) ديوان الشعر العربي ، أدونيس ، الجزء الأول ، مكتبة بغداد دار الساقي ، الطبعة الخامسة ٢٠١٠م .، ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩.

والمعارك النقدية التي أبعدت النقاد المحافظين عن الاهتمام بالقضايا الأساسية واستفرغتهم في الرد على هذه الاتهامات والتحذير من مخاطرها، وقد جاء الحديث عن القطيعة مع التراث بهذه الصورة المباشرة تحت دعوى حرية الثقافة والفكر التي تم الترويج لها في هذه المرحلة الزمنية.

ج- الدعوة إلى قصيدة النثر.

أما القضية الثالثة التي نتجت عن ضعف الهوية الثقافية في هذه المرحلة وعبرت عن تدهور الوضع الأدبي والنقدي، قضية قصيدة النثر التي تبنتها مدرسة الحداثة الشعرية في لبنان، وجماعة أصوات وإضاءة في مصر، وقد جاء تأثر الشعراء بهذا النمط من النظم رغبة في محاكاة الشعر الغربي الذي ابتدع هذا اللون من القصائد، وهذا ما يوقفنا على خطورة التبعية الثقافية التي وصلنا لها في هذه المرحلة الزمنية.

برزت قصيدة النثر إلى الواجهة، ونشأ حولها خلاف نقدي بين الشعراء والاتجاهات الأدبية والنقدية الداعية لها، وبين الأدباء والنقاد الذين رفضوها لتنافيها مع الخصائص الفنية للقصيدة العربية؛ وبعيدا عن حالة الجدل الأدبية والنقدية التي نشأت في الوطن العربي حول هذه القضية، فقد أقر العديد من الشعراء والنقاد الذين أصلوا لها ونظموا عليها بفشل التجربة، وهذا أدونيس الشاعر والناقد الذي كان من أبرز المنادين بها يقول:"إذا أخذنا النموذج الفرنسي الأصلي لقصيدة النثر، وقارنا به ما ينتجه معظم كتاب النثر عندنا في اللغة العربية الآن، قلما نعثر على قصيدة نثر حقا، فما عندنا هو كتابات يستخدم فيها النثر بطرق خاصة، تشكيلا وبناء، يقصد به أن يكون شعرا، وليس هذا حطا من شأن هذه الكتابات، وإنما هو وصف لا بد منه إذا كنا نريد أن نعرف ما نكتب"[1]، وهاهو الناقد والشاعر حسن

(١) موسيقى الحوت الأزرق (الهوية ، الكتابة ، العنف)، أدونيس، مكتبة الآداب، الطبعة الأولى ٢٠٠٢، ص ١١٣.

طلب الذي كان من أبرز شعراء جماعة أصوات وإضاءة يعلق على تجربة قصيدة النثر بقوله"قصيدة النثر العربية لم تنجح في نظري لأنها نشأت وانتشرت كما تنتشر (الموضة) أو التقليعة، ولم تنشأ لكي تستجيب لحاجة جمالية أو لتشبع رغبة حقيقية في التجديد على نحو ما فعلت مثلا الحركات الطليعية الفنية في الغرب، منذ أواخر القرن التاسع عشر وإلى الآن، ولعل سر انتشار هذه التقليعة بين أوساط الشباب خاصة، هو مجرد الرغبة في المحاكاة، أو التظاهر المجاني بالحداثة! وقد أغرت سهولة كتابة قصيدة النثر، كثيرا من المتطفلين على الشعر بالجرأة على كتابة الشعر ونشر ما يدعون أنه دواوين أو مجموعات شعرية، وأنا أوقن أن معظمهم يهرب إلى النثر لأنه يعجز عن إقامة الوزن، وهذا ليس مجرد تخمين، فأنا أعرف عددا كبيرا من شعراء قصيدة النثر في مصر خاصة، وأعرف أن إمكانياتهم تقعد بهم عن كتابة قصيدة حقيقية سليمة الوزن. وليس هذا موقفا ضد حرية الإبداع، ولا هو بتعصب لقصيدة التفعيلة ضد قصيدة النثر، ولكنه إيمان بأن ضياع الإيقاع من الشعر يفقده عنصرا جوهريا وينزل به خسارة فادحة لا تعوض، ولقد حاولت . ولا أزال . أن أتابع الدواوين والمجوعات الشعرية الغزيرة التي تصدر باستمرار من هذا الشعر، فلم أجد في الغالبية العظمى منها ما يوقفني ليضعني أمام تجربة شعرية حقيقية كاشفة"[١].

ولو دققنا النظر في الجمل الآتية التي وردت في كلام أدونيس وكلام حسن طلب، وهذه الجمل هي: (النموذج الفرنسي الأصلي لقصيدة النثر، الحركات الطليعية الفنية في الغرب، الرغبة في المحاكاة، التظاهر المجاني بالحداثة، يهرب إلى النثر لأنه يعجز عن إقامة الوزن، حرية الإبداع) لوقفنا بدقة على المرجعية الثقافية لأصحاب هذا الاتجاه ومدى الغزو والشرخ الثقافي الذي أصبنا به، فهذه جمل ينبغي أن نطيل النظر والتفكر فيها حتى نقف على الواقع الأدبي والنقدي

(١) http://www.alnoor.se/article.asp?id=36925

الذي وصلنا له.

د- أزمة النقد الأدبي.

برز الحديث عن هذه القضية في العديد من الحوارات والكتابات الأدبية والنقدية في الربع الأخير من القرن العشرين، وقد تولدت هذه القضية نتيجة التدهور الثقافي في الحياة الأدبية والنقدية التي وصلنا إليها في الوطن العربي، فبعد مسيرة حافلة بالانفتاح الثقافي والفكري على الأدب والنقد الغربي، وبعد جهود متعددة في الترجمة والتعريب والنقل لمنجزات الاتجاهات والمدارس والمذاهب والمناهج والنظريات الأدبية والنقدية التي قامت في الغرب، وبعد حوارات ومناقشات ومعارك نقدية دارت حول الموقف من التراث وآليات التعامل معه، وبعد تجارب متعددة مرت بها الحياة الأدبية والنقدية تراوحت بين المحافظين الذين دعوا إلى الحفاظ على الهوية الثقافية العربية، وبين المجددين الذين سيطروا على الساحة الأدبية والنقدية والثقافية وغالوا في التجريب واتخذوا منه وسيلة للتجديد في الحياة الأدبية والنقدية، برز سؤال في غاية الأهمية، وهذا السؤال هو: ماذا حقق النقد العربي من منجزات على المستوى النظري والتطبيقي، وهل يمكن أن يكون هناك ملامح لنظرية أدبية ونقدية للنقد العربي توزاي النظريات الأدبية والنقدية التي ظهرت في الحياة الأدبية والنقدية في الغرب؟، وهنا أدرك العديد من الأدباء والنقاد أن هناك أزمة نقدية تمر بها الحياة الأدبية والنقدية في الوطن العربي.

وقد حاول العديد من النقاد تشخيص هذه الأزمة والحديث عنها، فالدكتور إدريس الناقوري تناول الأمر وبين أن النقد العربي جزء من الثقافة العربية، لذلك لا يمكن إطلاقا فصل النقد في أدبنا المعاصر عن مجمل التطورات والتناقضات والإشكاليات الحضارية التي يعيشها المجتمع العربي، سواء في صراعه مع الخصم أو العدو، أو من خلال تفاعله مع التيارات الفكرية أو مع الحضارات الأخرى، وقد أدى تأثر النقد بالأحداث والمؤثرات التي أسهمت في ضعف الهوية الثقافية التي عرضنا لها إلى شعور النقاد بوجود أزمة في النقد وتوجيه العديد من التهم إلى النقد

العربي، وهذه التهم مفادها "أن هذا النقد فقد أصالته، أو أنه يعيش ضربا من الاستلاب، أو نوعا من التبعية للنقد الغربي أو للثقافة الغربية، وهناك من يقول أن النقد العربي أصبح نقدا شكليا، وأنه انساق مع التيارات البنيوية والشكلية أو الشكلانية في الثقافة العالمية المعاصرة"(١)، وقد بين الدكتور إدريس الناقوري أن السبب في أزمة النقد من وجهة نظره تتمثل في "أن الثقافة الأوربية استطاعت أن تنفذ إلى الثقافة العربية الممتدة والمتنوعة في العديد من دوله وبلدانه، "وأن تتفاعل معها بعد أن كانت هي المؤثرة فيها، وأحيانا أن تسيطر عليها، أي أن تمارس عليها نوعا من الغزو الفكري، أو الغزو الثقافي والأدبي"(٢)، وهذا ما حدث بالفعل وتبين من خلال ما عرضنا له في الفصول والمباحث السابقة.

لكن هناك من النقاد من عبر عن هذه الأزمة، لكنه تجاوز الإشارات السريعة والعابرة، إلى التنظير والتأصيل العلمي الجاد بهدف وضع حلول جادة نعالج بها أزمة النقد التي نمر بها، وبهدف وضع حد للتيه الأدبي والنقدي الذي نمر به، وقد تمثلت جهود هؤلاء النقاد في الحديث عن المخاطر الأدبية والنقدية التي وصلنا إليها من خلال التفاعل غير المنضبط مع الثقافات المغايرة، بالإضافة إلى الحديث عن قيمة التراث ومخاطر التقطيعة التامة معه، مع التدليل على قدرته على التأسيس لنظرية أدبية ونقدية عربية لها ملامحها وخصائصها الثقافية والتراثية العربية، وهو الأمر الذي قام به العديد من النقاد العرب القدامى، لكننا قصرنا في العصر الحديث في البناء على ما توصلوا إليه، ونتيجة لذلك التقصير، فقد عالج هؤلاء النقاد هذا الخلل من خلال التأصيل الفعلي لنظرية أدبية وعربية تقوم على الثقافة والتراث والمرجعية الفكرية العربية، والبناء على الجهود التي قدمها نقادنا القدامى، ومن بين النقاد العرب الذين أخذوا على عاتقهم النهوض بمعالجة أزمة

(١) أسئلة النقد، حوارات مع النقاد العرب، جهاد فاضل، الدار العربية للكتب، ص ٢٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٣.

النقد من خلال هذا المنظور الدكتور محمد محمد حسين، والدكتور شكري عياد، والدكتور مصطفى ناصف، والدكتور عبد العزيز حمودة، وهو رائد النقاد في هذا الاتجاه، وقد دخل في صراعات متعددة مع نقاد الحداثة العرب، كما قام بوضع تصور متكامل لنظرية أدبية ونقدية تعالج الشرخ الثقافي الذي أصبنا به، وكان ذلك من خلال ثلاثيته النقدية، المرايا المقعرة، المرايا المحدبة، الخروج من التيه، وقد بين أن ما يفعله في هذه الثلاثية ما هو إلا "محاولة لرأب الصدع، ووضع نهاية لثقافة الشرخ. إنني ببساطة أحاول الإجابة عن سؤال أصبح اليوم أكثر إلحاحا من أي يوم مضى: (من أنا)؟ والتساؤل لا يكتسب شرعيته من هذا الإحساس المؤلم الذي نعيشه بالانشطار والتمزق فقط، ولكن أيضا من رفضي القاطع لأن أظل علامة ثقافية هائمة تسبح حسبما يقذفها التيار، ويطلب منها أن تستقر في نهاية المطاف فوق شاطئ سوسير وشتراوس وياكوبسون وبارت ودريدا، بل حتى هوسيرل وهايدجر، بينما شطآن العقل العربي، شطآن الجاحظ وقدامة بن جعفر وابن طباطبا العلوي وعبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني قريبة، أقرب مما يتصور الكثيرون، من العقل والقلب"!"[1].

ومن هنا نقف على حجم الضعف الذي وصلنا إليه في حياتنا الأدبية والنقدية، فأزمة النقد برزت بصورة قوية في هذه المرحلة، وأقر بها العديد من النقاد من مختلف الاتجاهات والحركات الأدبية والنقدية في الوطن العربي، حتى شعراء الحداثة ونقادها أقروا بوجود أزمة نقدية حادة يعيشها النقد العربي، لكن أفضل ما في هذه الأزمة أنها نبهت الأذهان واستوقفت العديد من الأدباء والنقاد المخلصين في الوطن العربي إلى البحث عن حلول جادة لمعالجة الأزمة الأدبية والنقدية التي نمر بها.

(١) المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، الدكتور عبد العزيز حمودة، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٧٢، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، ص ١٣.

الخاتمة

حاولت في هذا البحث أن أقف أمام الأسباب التي قادت إلى ضعف الهوية الثقافية العربية، وأثر هذا الضعف وانعكاسه على الحياة الأدبية والنقدية في الوطن العربي، وسوف أعرض للنتائج والتوصيات المتعلقة بالموضوع في النقاط الآتية:

- أن الصراع على الهوية الثقافية العربية صراع قديم، والواجب علينا أن نتنبه لهذا الأمر، وأن يكون لنا دور في الكشف عن وسائل السيطرة على هويتنا الثقافية العربية، وأثرها على العلوم الإسلامية المتعددة، وهذا ما قمت به فيما يتعلق بالجانب الأدبي والنقدي.
- إذا كان الصراع على الهوية الثقافية قديم، فالدول الأوربية لم تهدأ ولم تغفل عن هذا الصراع وحقيقته، بل كانت تتحلى بالصبر وتطور أساليها في كل مرحلة بما يتوافق مع طبيعة المرحلة الجديدة، وقد أثر هذا بصورة سلبية على هويتنا الثقافية حتى وصلنا إلى الحالة التي نعيشها الآن.
- تبين لنا الأثر السلبي الذي تركه الاستشراق، والاستعمار، والبعثات العلمية الموجهة، وافتتاح المدارس التي تخدم أهداف الدول الغربية، واستقدام المستشرقين للتدريس جامعاتنا ووضعهم لمناهجنا التعليمية، فهذه الأمور كانت من أكبر العوامل التي ساهمت في القضاء على الثقافة العربية وأثرت بالسلب في أجيال الأدباء والنقاد الذين عاصروا هذه الأحداث، وهذا ما أكده الدكتور زكي نجيب محمود على سبيل المثال لا الحصر.
- أن تغيير الهويات الثقافية لا يأتي فجأة، بل يأخذ وقتا ممتدا، وهو ما حدث مع الثقافة العربية، فقد أخذ التغيير قرونا ممتدة لكن حدث للأوربيين ما أرادوا بالصبر والمثابرة، وكذلك النهوض لا يأتي فجأة، بل يأخذ وقتا، وواجبنا أن نبدأ في معالجة الخلل الذي أصبنا في هويتنا الثقافية، فمع تراكم الجهود والجد والمثابرة بإمكاننا النهوض والخروج من التيه الثقافي الذي وصلنا إليه، وهذا ما تم من خلال جهود العديد من الأدباء والنقاد والمفكرين العرب من أمثال الشيخ محمود شاكر، والأستاذ أنور الجندي، والدكتور محمد محمد حسين، والدكتور

عبد العزيز حموده، وشكري عياد، وغيرهم العديد من الأدباء والنقاد والمفكرين في سائر الوطن العربي، ولو نظرنا إلى جهود هؤلاء الأدباء والنقاد والمفكرين لتأكد لنا أن النهوض لا يأتي فجأة، فهذه الدعوات بدأت في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وامتدت حتى الآن، وقد كانت في بدايتها دعوات تدق ناقوس الخطر، وتكشف الوسائل التي اعتمد عليها الأوربيون في تخريب ثقافتنا وتوجيهها وغزونا فكريا وثقافيا، وتكمن قيمة هذه الدعوات في أنها نبهت الأذهان ونبهت المخلصين من أبناء الأمة إلى ضرورة التصدي للمخاطر التي تحيط بهويتنا وثقافتنا، لكن تطورت هذه الدعوات في نهايات القرن العشرين، ونشأ لدينا جيل من النقاد بدأ في التأصيل والتنظير الفعلي لنظرية أدبية ونقدية عربية تقوم على الثقافة والتراث والمرجعية الفكرية العربية، والبناء على الجهود التي قدمها نقادنا القدامى، ومع وجود هذه الجهود التي تحفظ الهوية الثقافية من الضعف والذوبان، إلا أننا بحاجة إلى الاستمرار والبناء على ما قام به هؤلاء النقاد، فقضية الهوية الثقافية قضية يجب أن تجد اهتماماً أكبر في الأوساط الأكاديمية والبحثية والثقافية لارتباطها بمصير الأمة الثقافي والفكري، وقد أثبت الدكتور عبد العزيز حموده في ثلاثيته النقدية إمكانية قيام نظرية أدبية ونقدية تنهض وتؤسس على التراث والثقافة والمرجعية العربية الخالصة، وهذا هو الطريق والسبيل الذي نؤمن بتحقيقه لنهضتنا الأدبية والنقدية.

- من الواجب علينا في دراساتنا الأدبية والنقدية، أن نتجاوز النزعة الإقليمية في الدراسات الأدبية والنقدية، فقد ساهمت هذه الدراسات في ضعف هويتنا الثقافية، والصواب أن نبحث عن العوامل والقواسم الأدبية والنقدية المشتركة بين بلدان الوطن العربي بحيث تكون مجالا خصبا للدراسات الأدبية والنقدية، وهنا يجب التأكيد على دور الجامعات العربية في النهوض بمثل هذه الدراسات الجادة والاهتمام بهذا التوجه في أقسامها العلمية من خلال توجيه الباحثين في مرحلتي الماجستير والدكتوراة لدراسة هذا الفرع من الدراسات الأدبية والنقدية،

كما تأتي قيمة هذه الدراسات وأهميتها أيضا في مساهمتها الفعالة وأثرها الإيجابي في النهوض بنظرية أدبية ونقدية عربية تعالج الخلل الذي أصبنا به في هويتنا الثقافية، فهذه الدراسات ستكون أكبر مساعد للنهوض بهذا الأمر.

- ضرورة الاهتمام بدراسة الأدب في العصور التي تلت العصر العباسي الثاني، وهذه العصور هي: الدولة الأيوبية، ودولة المماليك، والعصر العثماني، فالصواب كما ذكرنا أن يتم التأريخ والتوسع في الدراسات الأدبية لجميع الحقب الزمنية باعتبارها تمثل مرحلة من مراحل الأدب العربي، وهذه المراحل من الطبيعي أن يقوى الأدب أو يضعف فيها، وذلك حتى تستفيد الأمة في مراحلها المقبلة، خاصة وأن الأدب في هذه المرحلة الزمنية قد حافظ على مرجعيته الثقافية والتراثية العربية مع ضعفه وتدهوره، كما أن هذه الدراسات ستسهم في وصل ما انقطع من الثقافة الأدبية والنقدية، فمعظم الدارسين وبعض المناهج التعليمية تقف في اهتمامها عند الأدب في نهايات العصر العباسي الثاني، وبعده تنتقل إلى العصر الحديث، وكأن هذه الفترة لا وجود لها في التاريخ الأدبي والنقدي للأمة والثقافة العربية، وقد بينا خطورة هذا الأمر في هذه الدراسة والغرض منه.
- تبين لنا ضرورة التنبه لخطورة العديد من المصطلحات التي شاعت في الوسط الأدبي والثقافي، ومن هذه المصطلحات على سبيل المثال (حوار الحضارات، التفاعل الثقافي، الحرية الثقافية، الحداثة والتحديث، تحديث العقل العربي) فهذه مصطلحات ثبت لنا من هذه الدراسة أنها كانت زائفة وتم نشرها والترويج لها بهدف إضعاف الهوية الثقافية وتذويبها في الثقافات الوافدة، وقد أغرت هذه المصطلحات العديد من الأدباء والنقاد العرب فكثر تشدقهم بها، وفي مقابل هذه المصطلحات برزت مصطلحات أخرى، هي (الجمود والتأخر، التخلف والرجعية، التشدد والانغلاق، التقوقع داخل الذات) وهي مصطلحات كانت توجه للأدباء والنقاد المدافعين عن فكر الأمة وثقافتها، ويجب ألا نرهب منها وألا نترك لها مجالا للتأثير فينا.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع .

١.	أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير، الاستشراق، الاستعمار)، تأليف عبد الرحمن حسن حبنكة، دار القلم دمشق، الطبعة الثامنة ٢٠٠٠م.
٢.	الأدب في العصر الأيوبي، الدكتور محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.
٣.	الاستشراق رسالة الاستعمار، الدكتور محمد إبراهيم الفيومي، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.
٤.	الاستشراق والمستشرقون مالهم وماعليهم، الدكتور مصطفى السباعي، دار الوراق، الطبعة الأولى.
٥.	الاستشراق والوعي السالب، تأليف خيري منصور، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٦.	الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، الدكتور محمد عبد المتعال محمد الجبري، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.
٧.	الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، تأليف إدوارد سعيد، ترجمة الدكتور محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.
٨.	أسئلة النقد، حوارات مع النقاد العرب، جهاد فاضل، الدار العربية للكتب، ص ٢٣.
٩.	تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية، العراق، إيران)، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الثانية.
١٠.	تجديد الفكر العربي، الدكتور زكي نجيب محمود، دار الشروق، الطبعة السادسة ١٩٨٠م.
١١.	حديث الأربعاء، طه حسين، مؤسسة هنداوي للطباعة والنشر.
١٢.	دراسة الأدب العربي الحديث في صورة متكاملة، الرحلة إلى الحجاز أنموذجا، الدكتور أحمد محمد علي حنطور، طبعة على نفقة المؤلف، الطبعة الثانية ٢٠٠٤م.

١٣.	دفاتر الأيام ، أفكار على ورق ، يوسف الخال ، رياض الريس للكتب والنشر ، الطبعة الأولى .
١٤.	ديوان الشعر العربي ، أدونيس ، الجزء الأول ، مكتبة بغداد دار الساقي ، الطبعة الخامسة ٢٠١٠م .
١٥.	رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، تأليف الشيخ محمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.
١٦.	فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، الدكتور أحمد سما يلوفتش، دار المعارف، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.
١٧.	المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، الدكتور عبد العزيز حمودة، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٧٢، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.
١٨.	المستشرقون والتراث، الدكتور عبد العظيم الديب، دار الوفاء، الطبعة الثالثة ١٩٩٢م.
١٩.	من الذي دفع للزمار؟ الحرب الباردة الثقافية، تأليف: ف . س . سوندرز، ترجمة: طلعت الشايب، مراجعة: عاصم الدسوقي، المركز القومي للترجمة، الطبعة الرابعة٢٠٠٩م.
٢٠.	موسيقى الحوت الأزرق (الهوية ، الكتابة ، العنف) ، أدونيس ، مكتبة الآداب ، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م .

ثانياً : المواقع الإلكترونية .

1-	http://www.alnoor.se/article.asp?id=36925
2-	https://rashf.com/book/١١١١١٣٣٨٦

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة .	**١٢٩١**
الفصل الأول : المرحلة الأولى من مراحل ضعف الهوية الثقافية (١٠٩٦-١٥٠٠م).	**١٢٩٤**
المبحث الأول: الأسباب التي أدت إلى ضعف الهوية الثقافية في هذه المرحلة.	**١٢٩٤**
- الحروب الصليبية.	**١٢٩٥**
- ردود الفعل في أوربا على سقوط القسطنطينية.	**١٢٩٥**
المبحث الثاني: أثر الهوية الثقافية وانعكاسها على الحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة.	**١٣٠١**
- الحياة الأدبية والنقدية وصلتها بالثقافة الإسلامية في هذه المرحلة.	**١٣٠١**
- نقاط القوة والضعف في الحياة الأدبية والنقدية لهذه المرحلة.	**١٣٠٣**
- المرجعية الثقافية والتراثية للحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة.	**١٣٠٧**
الفصل الثاني: المرحلة الثانية من مراحل ضعف الهوية الثقافية (١٥٠٠-١٩٥٠م).	**١٣١٠**
المبحث الأول: الأسباب التي أدت إلى ضعف الهوية الثقافية في هذه المرحلة.	**١٣١٠**
- الاستشراق.	**١٣١٣**
- الاستعمار.	**١٣٢٠**
- البعثات العلمية.	**١٣٢٤**
- افتتاح المدارس والجامعات في البلدان العربية.	**١٣٢٨**
- استقدام المستشرقين للتدريس في الجامعات العربية.	**١٣٣١**

المبحث الثاني: أثر الهوية الثقافية وانعكاسها على الحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة.	١٣٣٤
– الموقف من الثقافة الوافدة.	١٣٣٤
– الموقف من التراث الأدبي والنقدي.	١٣٣٧
– شيوع النزعة الإقليمية في دراسة الأدب العربي.	١٣٤٠
– ضعف الدراسات الأدبية والنقدية المتعلقة بالعصر العثماني.	١٣٤٢
– المحاكاة التامة للتيارات الأدبية والنقدية في الأدب والنقد الغربي.	١٣٤٣
الفصل الثالث: المرحلة الثالثة من مراحل ضعف الهوية الثقافية (١٩٥٠–.......).	١٣٤٦
المبحث الأول: الأسباب التي أدت إلى ضعف الهوية الثقافية في هذه المرحلة.	١٣٤٨
– الترويج لمصطلح الحرية الثقافية.	١٣٥١
– افتتاح المؤسسات والمنظمات والمراكز الثقافية.	١٣٥٩
المبحث الثاني: أثر الهوية الثقافية وانعكاسها على الحياة الأدبية والنقدية في هذه المرحلة.	١٣٥٩
– الدعوة إلى تحديث الحياة الأدبية والنقدية من خلال الترجمة والتعريب للثقافة الوافدة.	١٣٥٩
– الدعوة إلى القطيعة مع التراث الأدبي والنقدي.	١٣٦١
– الدعوة إلى قصيدة النثر.	١٣٦٣
– أزمة النقد الأدبي.	١٣٦٥
الخاتمة.	١٣٦٨
المصادر والمراجع.	١٣٧١
فهرس الموضوعات.	١٣٧٣